هُبوبُ الرّوح

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الإلكتروني

E-mail: unecriv@net.sy
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

الإخـــراج الفـــني: وفـــاء الســـاطي

ثناء درويش

هُبوبُ الرّوح

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة القصة
2020

زهرة الكادابول

(1)

كانت ليلة باردة مظلمة.....

الفاتح من شهر شباط تاريخ سيبقى محفوراً في ذاكرتها رغم فوضى الملفّات فوقه وتحته، فكأنه ومناخ هذه الليلة فيصل عالق بين الشتاء والربيع.

فتحت جهينة الباب بهدوء تامّ، خشية أن يفضحها صدأ الأيام على مفاصله، فيئزّ متواطئاً مع جبروت أخيها وضعف أمّها، وحتى مع حطام الأحلام.

أحكمت ربط حجابها، فيما عجز معطفها عن كبح اجتياح الرجفة في عظامها، فالأدرينالين الليلة في ذروته خوفاً وغضباً وبرداً.

الإنارة الضعيفة لعمود الكهرباء العجوز، مكّنتها من تجاوز الحيّ بسلام، لتلقى نفسها أمام متاهة، دروبها تضيق وتضيق لتكتم على أنفاسها.

لابدّ أن أحد هذه الدروب مفتوح يتّسع لمرور ذؤابة روح في جسد هزيل، لكنها أعجز عن الاستدلال بمقولة "الخير فيما اختاره الله" هل اختار الله لها ؟؟!!!

هل يده التي دفعتها بقوّة لتتحرّر من فرعون وجنده، أم هي يد خفيّة تتربّص بها شرّاً ؟!

وما يدريها لعلّ الأرض كلّها مرتعاً للشياطين، بيدهم مفاتيح الرضا والسخط.. القبول والرفض.. الاستعباد أو الاستعباد. بدأت تنوء بالحقيبة التي استودعتها تفاهاتها، والتي عجزت عن الاتساع لكون قلبها ومدارات الألم.

كان بودّها أن تحمل أتفه أشيائها معها ولا تترك أثراً منها في عتمة ماضيها الكئيب، وتمنّت لو اتّسع الوقت للتخلّص حتى من صورها وخربشاتها وملابسها العتيقة كعقول أهل بيتها والحيّ والبلدة كلّها.

لكن الوقت كان أضيق حتى من التردّد والموازنة بين البقاء أو الرحيل، فقد ضاق وضاق ليصير قراراً وحيداً، العقل أمامه مغيّب تماماً، فالروح لحظتها لم تكن إلا عصفوراً فُتح له باب القفص ولا يعرف كم صيّاد يتربّص به خارجاً.

"إلى أين تمضين يا مسكينة، وأيّ جنون أن تكوني ريشة في مهبّ الريح، عودي أدراجك قبل افتضاح أمرك وتحايلي على بؤس واقعك بالصبر وانتظار الفرج.

ثمّ إنك لا تملكين من المال إلا ما يوصلك بالكاد للمدينة. عودي يا جهينة.. عودي ليس للغريب وطن ولا بيت ولا سقف يحميه".

هكذا راحت تحدّثها نفسها الغائمة بحزن، وتحاول جرّها لمزالق طريقها الوعر وغياهب القادم العاتمة.

لكنها استجمعت قواها وردّت عليها بإيمان لم يزعزعه شرّ البشر، وهي تكفكف دمعها:

"لكـــن لـــه ربّـــاً يحميـــه، وإرادة تكفيـــه وتغنيـــه".

صعدت آخر حافلة تغادر البلدة نحو العاصمة، ثم رمت نفسها متهالكة في مقعد اللاعودة.

(2)

شهادة جار

بشرفي وبأولادي الأربعة وبشاربيّ اللذين ربيتهما شعرة شعرة، ليكونا دليل رجولتي وعلامة صدقي الفارقة .. أقول:
كنت أراها تتسلّل خفية كلّ صباح كلما خرج أخوها إلى عمله والذي لا يعود منه عادة إلا مساء، وكانت تغيب بعض الوقت.. ما يقارب الساعتين بين زيادة أو نقصان، ثم تعود ووجهها أكثر إشراقاً.

في البداية حاولت إخماد النار التي تشتعل داخلي غيرة على شرف بنت حارتي وأخت جاري، وأدّعي أني سأكفّ عن مراقبتها من عين الباب الساحرة أو من خلف الستائر، وأريح أعصابي من كلّ هذا الشدّ والتوتّر.

لكن العين ساحرة حقاً وهيهات أقدر أن أقاوم سحرها، حين تدعوني بإلحاح وفتنة، كلما سمعت وقع خطى أحد الجيران. وما الذي يمكن أن يفعله عاطل عن العمل مثلي أو يملأ به وقته سوى مراقبة الرائح والغادي وتتبع أخبار الجوار ثم إعادة بثّها بما تقتضيه المصلحة العامة؟!

وأنا منذ اكتشفت سرّ جهينة، أحدّث نفسي كالمجنون وأعيد نفس السؤال على زوجتي:

"أين تذهب هذه المغضوبة، وكيف تجرؤ على اغتياب أخيها"؟!

لا تظنّوا أنّي كنت أنتظر ردّاً من زوجتي على أسئلتي.. فمنذ قالت لي يوماً : دع الخلق للخالق، أكلت حصّتها من الضرب بكلّ ما وقع تحت يدي، فتابت بعدها عن أن تستشرف أمامي وتدافع عن الباطل.

وأبقى أحور وأدور لا أستقرّ على حال وأنا أردد في قلق خانق:

"يا لطف الله.. اللهم استر على حريمنا.. ولا تفضح بناتنا"

"أستغفر الله العظيم من الحال الذي وصلنا إليه."

ثم أقطع وأجزم بكلّ يقين:

"ليس مثل العشق ما يجعل الوجه مشرقاً هكذا والخطى متراقصة" ثم لم أعد أطيق صبراً..

قرّرت إخبار أخيها بما يحدث من وراء ظهره وإبراء ذمّتي لأن الحقيقة أمانة في عنقي، وللجار حقّ على جاره. في تلك الليلة....

ساد صمت رهيب في بيت جارنا، بعد ساعات من الصراخ والعويل والنشيج المكتوم، وأصوات تكسير زجاج وأثاث وربما عظام.

كنت أرى زوجتي تتمتم في صلاتها ولا أستغرب أن تكون تدعو عليّ ربها المنتقم الجبّار.

أما أنا فقد نمت بعدها مرتاح الضمير، وكانت المرّة الوحيدة التي لم ألحظ فيها تسلّل جهينة الأخير.

(3)

شهادة صديقة

كانت صديقتي المقرّبة وربما الوحيدة، منذ طفولتنا إلى لحظة اختفائها تاركة ذكراها وشم ألم.

لا أدّعي أنني كنت أفهم تماماً هذيانها عن الحريّة، فقد كنت بطبعي هادئة أميل للسكينة والرضا، اكتشفت بعد زمن أنهما خوف مبطّن يرتدي ثوب التسليم.

لكن الفهم يبدو غير مهمّ أمام إحساس كلّ منّا بالأخرى، وتفانينا تجاه بعضنا مهما كانت النتيجة.

كم مرّة راحت جهينة ترتجف بحضني إثر صدامها مع أخيها، الذي يعقبه بداهة ضرب مبرّح، وكم نصحتها ألا تعانده أو تقف بوجهه إذا ما ثار، وأن الصبر مفتاح الفرج، ولابد أن تأتي لحظة ينتهي به كلّ هذا العذاب.

وهكذا كتمت سرّها خشية افتضاح أمرها وتمنيت لو تخبره أين تذهب كلّ يوم لعلّه يتفهّم، أو تكفّ عن فعلتها ولا تفتح على نفسها أبواب جهنّم.

هي تعرف تماماً أنه تحرّش بي يوماً، أنا التي كنت بمثابة أخت له، ولولا دخلتْ فجأة لما تورّع عن مساس عفّتي. و تعرف أكثر من ذلك.....

فالعطر الرخيص على قمصانه لا يكتم خبراً.

أتساءل بعد كلّ هذا الزمن الذي أراوح فيه مكاني:

هل كان سيصدّقني لو أخبرته الحقيقة.

حقيقة أنها كانت قد سجّلت بدورة حاسوب، واقترضت مني رسم التسجيل.

وأنها كانت تنتظر ذهابه إلى العمل، لتمضي نحو نافذتها الوحيدة على العالم.

النافذة التي لم أستطع حتى اللحظة امتلاك إرادة فتحها، بينما كانت لها تلك الإرادة، في تلك السنين البعيدة.

(4)

شهادة عابر الحافلة

ما الذي يمكن أن تعنيه شهادة عابر سبيل مثلي بعد كلّ هذه السنين.

بالمقابل أقول:

ألم أكن أول من شهد صرخة "لا" من يمامة السلام، وهي تتلوّى وجعاً في ذلك الأمس البعيد.

ليلتها، ما زلت أذكر تماماً، أنها كانت الأنثى الوحيدة بين الركّاب.

لفتت انتباهي منذ لحظة صعودها الحافلة، وتبيّنت رغم النور الشحيح كدمات زرقاء في وجهها، فقد صادف أن مقعدها قبالة مقعدي.

جلست منكمشة تتضح تقاسيمها بالألم وكنت من حين لآخر أسترق النظر بلمحة خاطفة فأرى انسكاب الدمع من تحت ستائر الأهداب المسبلة.

لم يكن الفضول ما يحرّك مشاعري بل تعاطفي الإنسانيّ نحوها، فمما لاشك فيه أنها قد تعرضت لأذى جسديّ ونفسيّ وإلا

ما الذي يدفعها للسفر إلى العاصمة وحدها في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟!

قلبي مضطرب النبضات لساعات، وحواسي كلّها مستنفرة كقطيع أيل نحو هذه الغريبة، والكتاب بين يديّ أقلّب صفحاته وأدّعي القراءة، فيما عقلي يستهزئ من كلّ الحروف أمام ألم امرأة.

أتساءل بعد هذا الزمن، هل كان عليّ أن أعرض مساعدتي عليها؟!

ولماذا آثرت أن أدعها غارقة في نسك أحزانها؟!

أتساءل أيضاً.....

هل كان سيخطر ببالي، أنني يوماً، بعد تلك الليلة بكثير، سأميّز وجهها من غير حجاب عبر لقاء على الشاشة الصغيرة.

(5)

شهادة مدرّس الحاسوب

هذه البنت فلتة.....

أقولها وكأنها لم تزل بذاكرتي الشابّة التي تنضح برغبة الحياة والتوق لتجسيد كينونة الوجود.

لم أجد بسواها، حتى هذه اللحظة من كلّ الذين مرّوا عليّ في دورات تعلّم الحاسوب، مثل هذا الشغف للمعرفة، ولا تلقّفها السريع لأيّة معلومة مهما كانت صعبة، فقد قطعت خلال فترة وجيزة ما يحتاج معه سواها لسنوات دون مبالغة.

و لأكن أكثر صراحة، لقد فتحت عيني على أمور كنت أجهلها، وأوحت إليّ بطرق لتطوير مهارات تعليم الحاسوب، كنت عميّاً عنها.

كان عليكم أن تروا بريق عينيها حين يبدأ الدرس، أو خفّة أناملها على لوحة الأزرار، أو أناقة روحها في التنضيد والجدولة وبرامج "الفوتو شوب" وسواها.. وهل من كلمات مهما عظمت تقدر أن تصف عطر وردة؟!

أجل أنا أنحاز للجمال.....

ليس انحياز الذكر للأنثى، بل انحياز المبدع لتجلّيات إبداعه فيما صنع، وكمحاولة للتقريب كبهجة الله بالإنسان حين يدور بمدارات لم تخطر على قلب بشر.

إن تسألوني عن الجمال سأقول "جهينة" وأصمت.

وليست شهادة عاشق، فأنا أحبّ زوجتي وطفليّ ومخلص لأسرتي إلى المنتهى.

بل هي شهادة حقّ الساكت عنها شيطان أخرس.

فهل أخطأت حين أنشأت لها صفحة في هذا الفضاء الأزرق، تليق بأجنحتها؟؟!!

أم أنني كنت المجرم، من حيث لا أدري؟!

(6)

شهادة زميلة في دورة الحاسوب

الشهادة لله - وقد ولّت تلك الأيام مع ملعونة الذكر - أنني لم أرتح لها منذ يومها الأول معنا.

فراستي لا تخطئ أبداً، والفراسة علمٌ وله أهل. فقصر القامة علامة الفتنة والبلبلة، ودقّة الملامح دليل اللؤم والنفس الخبيثة، وجهينة اجتمعت بها الصفتان معاً.

على فكرة، أمثال هذه الفتاة هم من أساؤوا للدين، فمن خلف الحجاب وستر الرأس كم وكم تجري أمور في الخفاء. و إلا.. بحقّ الله.. ما الذي يدفع أستاذنا للثناء عليها أمامنا، وتحفيزنا من خلال مقارنة تميزها بنا.

ما الذي أعجبه بها، لو لم تكن تشبع رغباته وعين الرغبة عمياء.

فلا اخضرار عينيّ يعنيه ولا طول قامتي ولا سيارتي الفارهة ولا محاولاتي لفت انتباهه بطريقة أو بأخرى.

ستقولون إن الغيرة تغلّف شهادتي تجاهها ولكم الحق فيما تقولون، لولا أنني رأيتها بأم عيني تكثر الالتفات كلصّ كلما

غادرنا المركز، خائفة من أمر ما تخاله يتبعها أو يمسكها بالجرم المشهود.

لماذا تسألوني عنها، وتشعلون ناري الخامدة بعد كلّ هذه السنين، فأنا لا يعنيني وقد صرت وزيرة للاتصالات، أن تكون جهينة حيّة أو ميتة، لأنها في الحقيقة ليست سوى ذكرى باهتة.

(7)

شهادة مديرة المدرسة الابتدائية

جهينة؟..... !

طبعاً أذكرها تماماً، وأذكر طفولتها، حتى كأني أراها الآن قبالتي.

ولطالما عجبت في ذلك الوقت كيف اجتمع الجرأة والتهذيب بآن في هذه التلميذة، وكيف اكتسبت محبة زميلاتها وتمنّت كلّ واحدة أن تكسب ودّها.

تتساءلون كيف بقيت عالقة في ذاكرتي؟!

ربما لضفيرتين سوداوين بشرائط بيض تتقافزان كأرجوحتين أثناء لهوها ثمّ تستكينان في دِعة خلال الدرس.

ضفيرتان حُجبتا بين يوم وليلة بحجاب يظهر فقط وجهها القمريّ الصغير من خلاله.

كان ذلك في مطلع العام الدراسي، وجهينة تلميذة في الصفّ السادس الابتدائيّ، تصحبها أمّها للمدرسة على غير العادة.

أسألها بودّ محاولة ألا يبدو سؤالي فضولياً أو إملائياً:

أليست صغيرة بعد على الحجاب؟!

كيف يمكن أن تُخنق هذه الضفائر الطفوليّة بسلاسل المنوع؟!

تجيب الأم بانكسار:

بالأمس بلغت، وصارت جهينة محسوبة على النساء، لن يقبل أخوها أن تلهو بعد اليوم في الحارة ولا أن تأتي للمدرسة وتعود لوحدها.

تعلو نبرة صوتي مستنكرة دون أن أقصد:

إن قطرات من الدمّ وبرعمي صدرها لا يكفيان للبتّ بقصة البلوغ.

فما زال أمامها سنوات من النضج النفسيّ وحينها لها حرية أن تختار ما يناسبها.

لا تلام أمّ جهينة، ولا آلاف الأمّهات خلعن عن أجساد صغيراتهن مراييل المدرسة الزاهية ولا ستر لهن سوى جلباب الزواج. فقد رَبّين كما رَضِعن والتاريخ استنساخ أبله، وما زال الشرف يختزل بأضيق الصور.

بالمناسبة.....

أين صارت أراضيها، وهل ما زالت تذكر مديرتها العجوز، كما بقيت أذكرها وأصلّي لأجلها؟

(8)

شهادة صديقة فيسبوكيّة

كنت قد قرأت شيئاً بهرني باسم "زهرة الكادابول" عبر موقع التواصل الاجتماعي، ولم أكن قد سمعت يوماً بهذه الزهرة. أعرف آراء معظمكم بالأسماء المستعارة، لما يوقد أصحابها من نار مستعرة، لابسين صفات مغايرة.

لكن لي رأياً آخر....

فقد فجعتني أسماء لامعة بدونيّة وخسّة وذهلتني أسماء مستعارة بفكر حرّ ومدارات رحبة.

حتماً لا يمكن الحكم دون محكّ، وليس كلّ المكاتيب تقرأ من عنوانها، كما يحلو للمثل الشعبي أن يثرثر على ألسنتنا. تبعت فضولي كعادتي وبحثت بدءاً عن هذه الزهرة عبر محرّك البحث في غوغل، فعرفت أنها زهرة نادرة موطنها الأصلي سيريلنكا ذات رائحة أخاذة تتفتح لساعات في الليل ثم تموت مع الفجر.

سريعاً أرسلت لها طلب صداقة.....

سريعاً وافقت.....

سريعاً صارت صديقتي الأثيرة رغم فارق السن.

كلّ الأسئلة تبدو خرساء بلا إجابة حين تتجاذب الأرواح كجنود مجنّدة تآلفها هو مغناطيسها الأقوى.

حكت لي بعدما تعارفنا عن نفسها، أحلامها، الجدران الصمّاء والقلوب الغُلف حولها، حلمها الإنسانيّ الأبهى، فوجدتني مأخوذة تماماً بجمال روحها في عصر جلّ اهتمام الفتيات فيه بإقامة العلاقات وتتبّع صرعات الموضة.

حين يجود عليك القدر بهكذا فطرة سيكون خيانة أن تفرّط بها، فرؤاها واضحة رغم حلكة الدرب، والمحبة أمانة في أعناقنا على الأقل وفق مفهومي لها وسعيي لتجسيدها.

لذلك وجدتني أعطيها رقم الهاتف وعنوان بيتي في العاصمة بلا تردد، وأحلف عليها أن تلجأ لي في أي وقت تحسّ به بالحاجة لسند.

ما لم يخطر ببالي أبداً، أنني سألتقيها لأول مرة بهكذا ظروف.

لن أنسى ما حييت تلك الليلة الباردة المظلمة التي رنّ بها هاتفي وكان المتّصل رقماً مجهولاً.

لكنني لن أنسى أيضاً أنني كنت بوابة عبورها نحو حلمها، رغم الشرخ الذي أحدثه دعمي لها في علاقتي الزوجية.

في النهاية...

إخلاصنا لإنسانيتنا هو الأبقى.

(9)

شهادة زوج الصديقة الافتراضية

قولوا لي بربّكم من منكم يقبل أن يصحو في منتصف الليل ليجد في بيته كائناً غريباً لا يعرف عنه شيئاً.

ومع ذلك تنظرُ لي زوجتي على أنّي بلا قلب وبلا رحمة أو ضمير.

زوجتي والحقّ يقال امرأة عاقلة متوازنة، وقفت معي في أحرج المواقف، وتحمّلتني في رضاي وسخطي، في غناي وفقري، إلى أن ظهرت هذه الفتاة في حياتنا.

لا أنكر أنها حكت لي عنها قبل قدومها المباغت معلومات عابرة، لكني لم أتوقع أبداً أن تكون سبباً لمشاحناتنا في الآونة الأخيرة وربما تنافرنا، وانغلاق كل منا على ذاته وجحيم أفكاره.

حتى هذه اللحظة، لم أفهم أبداً كيف يمكن الوثوق بشخص لا نعرف تاريخه، ولا كيف نشأ وتربّى، شخص قادم من عالم افتراضيّ ليزلزل واقعنا.

تغمز لي زوجتي أنني أغار عليها من توجّه اهتمامها لسواي، أيّ سخف هذا، يحوّلني بنظرها لطفل غيور.

لن أسامحها أبداً تلك الشيطانة الصغيرة، وأحلامها الإنسانية لا تساوي عندي قشر بصلة ما دامت ارتضت أن تدمر سلامنا واستقرارنا.

رغم اعتراضي السابق كله، ولأجل عيني زوجتي حبيبتي....

وجدت للفتاة عملاً كمحاسبة في متجر صديق، وغرفة صغيرة تأويها.

أليس هذا هو الحب ؟!

أم أن له اسماً آخر.

(10)

شهادة صاحب المتجر

كنت قد استغنيت لتوّي عن محاسب ظلّ لسنوات يسرقني، وأنا أكذّب بحسن الظنّ ظنّي.

وحين أخبرني صديقي عن هذه الفتاة، وجدتني أتعاطف ضمناً مع قصّتها، رغم التشويش عليها من قبله بآرائه واعتراضاته.

ثم أنه صديقي الطيّب الذي لم يخذلني يوماً منذ كنا صبيين في المدرسة، فكيف لا أقدّم له خدمة صغيرة كهذه ما دام في موسوعي ذلك.

صحيح أن الحياة باينت بين ميولنا ومشاربنا، فقد أحببت الحياة العملية والتجارة، بينما كان هو فأر كتب، إلا أن ذاك لم يزعزع تلك المشاعر الصافية بيننا حتى بعد الزواج.

لم يسبق لي أن عيّنت امرأة في هكذا عمل، ليس لعدم ثقتي بصلاحية النساء للمحاسبة، ولكن لأن طبيعة المتجر الذي أهتم به بالأنتيكا والموزاييك، جعل أغلب العاملين فيه من الرجال.

وهي سهّلت عليّ الأمر في قبولها حين قالت لي بابتسامتها الحيية:

"جـرّبني لفـترة يـا عـمّ وإن لم أعجبـك الـرزق علـى اللّه" تبـارك اللّه فيمـا خلـق مـا أدمثهـا ومـا أرقّهـا، ورغـم أن ملامحهـا لـو فصّلتها عادية، لكـن هنـاك جمـال مـا تستشعره ولا تـدري كيـف. هل كان تعاطفي معها سببه حنيني لابنتي لورا في كندا، وأبوّتي التي تستصرخها للعودة، وبنفس الوقت تدعو لها ولأولادها بحياة رحبة كريمة حيثما حلّت.

أم مـا مـرّ أمـامي مـن صـور مفجعـة في الحيـاة أقسـمت معهـا أن أكون نصيراً لكل مظلوم مقهور؟!

من يوم دخلت جهينة المتجر وأرباحه في ازدياد.

كأنها ملاك الرحمة الأمين على كل قرش.

لـذلك .. سـعيت بعـد فـترة لتسـجيلها في الشـؤون الاجتماعيـة وحرصـت علـى خـدمتها وتـأمين سـكن لهـا بجوارنـا، وقـد أحبّتهـا زوجتي وعدَّتْها ابنةً لها.

إية إرادة في هذه الصبية.. إذ لم يمرّ شهران على عملها عندنا حين طلبت إذني لتسجل في الجامعة تعليماً مفتوحاً لا يستلزم الدوام في فرع اللغة الإنجليزية قسم الترجمة..

و مـا كنـت أعـرف يومهـا لمـاذا اللغـة الإنجليزيـة تحديـداً. أما اليوم.....

فأبتسم في سرّي وأقول:

هذه المرأة المشرقة عملت يوماً عندي.

(11)

شهادة عاشق افتراضي

حينما لاحت من بعيد بحجابها وقميصها الطويل وحذائها الواطئ، وصافحتني بودّ وحياء معرّفة عن نفسها : "جهينة" أو "زهرة الكادابول" ، تمنّيت لو تنشقّ الأرض وتبلعني.

عجز ذهني رغم حنكته عن الربط بين كتاباتها الحرّة المحلّقة، وصوتها العذب الذي استحلفتها مرّات ومرّات أن أسمعه ولو ملقياً التحية، وبين هذه البشرة الباهتة وهذه الضآلة. احترت ماذا أقول أو كيف أنسحب وأنا الذي نظمت بعشقها لشهور أجمل قصائدي.. وكم استنفزّت طاقتي حتى اقنعتها بلقاء عابر في مقهى الجامعة في وضح النهار.

محال أن تكون هذه هي زهرة الكادابول ومحال أكثر أن أعلّق حياتي بها.

لن أنسى ما حييت تلك النظرة الحادّة المتحدّية التي ودّعتني بها متمتمة: "فرصة سعيدة".. بعد لقاء لم يتجاوز عشر دقائق.

حين عدت إلى البيت.....

حمدت الله على استيقاظي من ذلك الكابوس.

لم أحرق قصائدي بها فهي أجمل إبداعاتي.

اكتفيت بتغيير اسم الزهرة إلى "ياسمين" مرّة ومرّة "نرجس".

(12)

شهادة حبيب

تعرّفت إليها حين كانت في السنة الثالثة من دراستها الجامعية.

ترمي على شعرها شالاً ورديا، يستر اليسير من شعرها ويترك الباقي للضوء والنسيم.

كنت قد تخلّفت عدة دورات عن دراستي، وكدت أستنفد فرص التقديم، مما يستلزم التحاقي بالخدمة العسكرية. حارني في البدء أمرها، إذ كيف اتفق أن تضع بعنقها صليباً - لاقى انجذاباً بداخلي لتحيّزي لمسيحيتي رغم تحرري من قصة المذاهب والأديان - وبنفس الوقت كلّ ما فيها يشي بأنّها مسلمة. التقت عيوننا من بعيد عدّة مرّات واجتاحتني صعقة الحبّ التي كثيراً ما قرأت أو سمعت عنها.

ثمّ تجرّأت بعد فترة ورحت أبادر بإلقاء التحية، أو أختلق الأسباب للتحدّث إليها كسؤالها عن بعض مقرّرات الدراسة. شالها بعد تعارفنا، راح ينحسر عن رأسها فتربطه بعنقها، ثم رأيتها بدونه ذات صباح مشرق.

الحبّ كالنار إن سرت في الهشيم لاشيء يوقفها، وهكذا وجدتني وجهينة متورّطين بحبّ جارف غير آبهين لانتماءاتنا المختلفة.

ما حدث بعد ذلك يفتّت الصخر من الأسى.

تعرضت جهينة لهجوم وحشيّ من أخيها في حرم الجامعة، لم تدر كيف استطاع الاستدلال على مكان وجودها، ونتيجة لما ألحقه بها من أذى جسدي ونفسي ألقي القبض عليه زمناً، ثم أفرج عنه بعد كتابته تعهداً خطياً بألا يتعرض لها ثانية، فعاد لبلدته بخفيّ حُنين.

ثم تتالت المشاحنات بيني وبين أهلي بشأنها، مما جعل علاقتنا مهددة بالفشل، فلا نكاد نتصالح حتى نتخاصم من جديد.

أقسم كنت مستعداً أن أتزوجها مستغنياً عن رضا أهلي، لكن حلمها الأبدي بالسلام كان غريمي وقد آثرته علي.

(13)

شهادة طفلة في روضة أطفال

يقولون إن الطفل ينسى حين يكبر، وتمسح الذاكرة الجمعية ذاكرته الكونية الفطرية.

فما لي حين ظهرت على الشاشة الصغيرة تلك المرأة الأربعينية، في مؤتمر للسلام بعد سنين، تطفر الدموع من عينيّ وأقول لزوجي:

قد كانت مربية في دار الحضانة الذي كنت فيه خلال طفولتي.

لقد علمتني خلال المرحلة التمهيدية والمرحلة التحضيرية اللغة الإنجليزية، وجعلتني أحبّ الروضة لأنها فيها، فليس يسيراً أن يعود الكبير صغيراً في حضرة الأطفال.

بعد دخولي المدرسة صرت أقارن كل معلمة ب "مس جهينة" فلا أجد لها مثيلاً أو شبيهاً وكثيراً ما تمنيت أن ألتقيها ولو مصادفةً، أو أعرف أين صارت الآن، وهل مازالت تذكرني كما أذكره؟!.

كنت أودّ أن أقول لها:

لقد تحققت نبوءتك وها أنا كما استبشرت بي مهندسة ناجحة، وقريباً أمّ أسأل اللّه أن تكون مثلك.

(14)

شهادة موظف في منظمة لحقوق الإنسان

للمرة الرابعة أرفض طلبها للعمل لدينا، لعدم استكمال الأوراق الثبوتية.

الورقة الناقصة كلّ مرّة هي ورقة الخبرة المهورة بأختام منظمات تماثل منظمتنا.

أنا هنا عبد مأمور لا أتعامل إلا من خلال الورق، حتى لو صدّقت كلامها أنها عملت في الكثير من الأعمال الطوعية دون أجر .. فإن الجهات العليا لن تصدّق.

التوثيق هو مصداقية أيّ قول وجهينة لا وثيقة معها تثبت أقوالها.

كنت أعرف في كلّ مرة أردّ طلبها أننا نفرّط بطاقة متحفّزة شبابية لديها هدف إنسانيّ.

ما لم أعرفه أني سألتقيها بعد مدة في موقع ميداني، تساهم في إعمار ما أحدثته الحرب من خراب وندوب.

(15)

الخاتمة

شهادة زوج جهينة

في حياة جهينة صفحات ألم مطويّة لم يشهد عليها أحد. لأنهم لم يكونوا معها فيها ليشهدوا بالسلب أو الإيجاب، بالصحيح أو الخطأ، بالفضيلة أو الرذيلة.

و أنا لن أدّعي أني عرفت جهينة تماماً.....

كان يحدث كثيراً أنها وهي تودّ الحديث عن ماضيها بعينين دامعتين، تشعّ عيناها فجأة وتجري كوعل بريّ في سهوب القادم. أو أن تضع رأسها على صدري لتنام من فرط تعب، فأجد رأسي هو من صار في حضن حنانها، وأناملها استراحة المحارب وسكينة اضطرابي.

لا.. لم أعرف يوماً هذه النفس التي اختلطت أضدادها فما عرفت فيها الضدّ من الضدّ.

فما كان يبدو بعين الغير سيئاً كنت أراه منتهى الخير، وخيرها كثيراً ما يأتي مكراً وحيلة.

جهينة يا وجعي الأكبر

أكبر مكر وشرّ أنك رحلت وتركتني لا متكأ لرأسي ولا طيب بعد طيبتك.

لمن أبثّ شجني بعدك يا حمامة السلام.

لمن أشكو وجع اغترابي وقلة حيلتي.

وأيّ البلاد ستحتمل حطامي ونقمتي.

الرصاص الطائش كالخطأ الطبيّ لا شفاعة له، فالنوايا لا تعيد روحاً مغادرة لجثة ازرقّت كمداً.

وهل يهمّ بعد رحيلك أي الجهات كانت ضدّك.

فلعلها اتفقت جميعاً على لا هويتك ولا انتمائك، وشربت معاً نخب انتصارها على مشارف نجيعك القاني.

أردت السلام في حربك الضروس، فأصابك السلام بمقتل.

وها أنا أسألك مناجياً، هنا على قبرك حاضناً "ميرا" وحيدتنا وثمرة حبنا وحلمنا:

هل وجدت في السماء وعدك بسلام غامر؟!

هل عرفت إن كانت الرصاصة التي أردتك من علاك طائشة أو مستهدفة؟!

هل شرح لك الله حكمته الخفية بأن يقتل الإنسان بيد الأهل؟!

وداعاً زهرة الكابول.....

فلبرعمك الصغير ان ينمو في أمدية من الضوء والهواء وعذوبة المنهل.

وفي برعمك سأراك.

****

تمّت

اللصّ الظريف

(1)

لصّ الشعور

وقف اللصّ أمام القاضي بكامل ظرافته وابتسامته التي راح يوزّعها بالمجّان على الحضور.

وحين أوضح القاضي له أنّ المحكمة تهبه حقّ توكيل محام.. رفض وقال:

"أنا محامي نفسي ولا أحد سيتفهّم دوافعي مثلي".

- هل تقرّ وتعترف أنّك سارق محترف؟

- أجل يا سيدي.

وهل ستعيد المسروقات إلى أصحابها؟!

- هيهات يا سيدي، كلّها الآن لم تعد ملكي.

- حدّثنا إذاً عن تاريخك اللصوصيّ، لعلّ المحكمة تجد لك دوافعَ وأسباباً للتخفيف من الحكم.

ابتسم اللصّ الظريف وسرحت عيناه في البعيد كأنّه يستذكر تاريخ أول قبلة، ثمّ قال:

"كان شاعراً مغموراً أقف تحت نافذته كلّ ليلة لأثمل بسماع قصائده الشجيّة كأني أصغي إلى بحّة ناي.

قصائده التي غالباً ينهيها بنشيج مكتوم ثمّ يغرق في النوم. وحين تلصّصت عليه وجدته قبل أن يسرقه النوم مني يمزّق ما يكتب ويرمي القصاصات في سلّة المهملات.

هل حقّاً ارتكبت جريمة حين رحت أتسلّل عبر نافذته وأجمع قصائده المنثورة ثم أنشرها للنور والهواء، مطبوعة باسمه لا باسمي؟ ثمّ أنّي كنت أدري أنه سيمسك بي متلبّساً بعد أن ذاعت شهرته، ليعرف من أخذ القرار عنه بإخراجه من نشيجه لتصفيق الإعجاب".

(2)

لصّ الوقت

- وماذا تقول عن سرقة الساعات من بيت العجوز؟!

أجاب اللص وبراءة الأطفال في عينيه:

نعم فعلتها ولو أطلقت سراحي سأظلّ أفعلها.

ماذا تفعل الساعات بمنزل عجوز، لا عمل لديه سوى عدّ ثواني العذاب في مدى الانتظار الطويل.

ثم لأخبرك بأمر لا تعرفه!

منذ عرف أولاد هذا المسكين أن لصّاً داهم بيت والدهم الوحيد، صاروا أكثر اهتماماً ويتناوبون على تمضية الوقت معه. للطرافة أخبرك، أنّي أخذت معي أيضاً التقويم المعلّق قرب سريره. أما ما فعلته بكلّ هذه الساعات التي كان يوزّعها في كلّ ركن، فقد تبرّعت بإحداها لطالب مقصّر، وأخرى لعامل كسول، وثالثة للمواعيد العربية كي تضبط توقيتها على ساعة بيغ بن. ورابعة احتفظت بها كمنبه ضروري لاستكمال لصوصيتي كعمل لا أتقاضى عليه أجراً سوى الجحود والنكران، ثمّ الوقوف كمجرم في قفص الاتهام.

(3)

لصّ القبلة

سرقت أيضاً، هيّا اعترف ولا تحوجنا لاتباع أساليب ترغمك على إفراغ جعبتك من مسروقاتها الكثيرة كما يبدو.

-سأعترف، رغم أنه لا دليل ضدّي، ولا شيء يجبرني على ما سأقول.

كانت حلوة كقمر نيسان، تنتظره كلّ ليلة عند نافذتها، ومرّات نهاراً عند الباب.

وكنت أراها في رواحي والإياب، وينفطر قلبي حزناً على من أحبّت من لا يستحق حتى رفّة هدبها.

زير نساء مشغول عنها بنساء رخيصات لا يعرفن من أسماء الحبّ العظمى إلا الهوى.

وقد ترددت طويلاً قبل الإقدام على فعلتي الحمقاء تلك. تسلّلت مع أشعة القمر إلى خدرها بعد أن تعطّرت بعطره الذي تحفظه عن ظهر قلب، وارتديت ما يشبه ثيابه واستعرت صوته. وفيما هي بين الصحو والغفوة سرقت منها قبلة طويلة. يشهد الله أنّي كنت كرسول السماء لم تعتريني شهوة رغم جمالها

الماحق، وكان كلّ همّي أن أهب تلك المسكينة ما تستحقّ من علامات الحبّ.

ثم تركت لها ورقة أخبرها بها أني مضطر للسفر والغياب، ووقّعتها باسمه الملوّث بالخسّة.

ثم أرسلت للدون جوان رسالة تهديد من مجهول أن يختفي تماماً من حياة هذه الجميلة وإلا.....

عرفت بعد ذلك أن الحسناء تزوجت ، وبقي أثر قبلة يتيمة عالق على شفتيها كوشم أثير.

(4)

لصّ الفرص

ومن أطرف ما سرقتُ يا سيدي القاضي الفُرَص، فهل تُسرق حقّاً الفُرص؟!

كنت أرى الفرصة كفتاة جميلة يتهيّب الشبّان وكذا العجائز التقرّب منها خوفاً أو عجزاً فإذا ما عادوا لا يجدونها لأني أكون صيّادها المتربّص.

يقال إن الفرصة لا تأتي للمرء مرّتين وأنا لم أكن أنتظرها لتأتي بل أسعى إليها حيثما كانت وأسلك أضيق الدروب لأظفر بها.

ثم ماذا بعد ذلك ؟!

لا شيء..

أطلق سراحها مسجّلاً أمام نفسي انتصاراتي واحداً إثر الآخر. فكأن هذه الفرص ما كانت إلا رقصتي البهلوانية على حبال المغامرة، أو فنادق أقيم فيها لأيام، أو بلداناً أسوح في بديع جمالها.

نسيت أن أخبرك يا سيدي أنني كثيراً ما كنت أقنص الفرصة، ثم أقدمها بكلّ طيب خاطر لذي حظّ عاثر أو مسكين فتّح عينيه على مقولة أن الفرص للفهلويّ الشاطر. فهل حقّاً أدعى سارقاً، طالما لا غاية عندي سوى التحدّي .. ثمّ الجود بما عندي؟؟!!

(5)

لصّ الأفكار

"و ماذا عن سرقة الأفكار أيها اللصّ الظريف"؟.

يشعر اللصّ بأن إطلاق القاضي عليه هذا اللقب يشبه وسام الشرف وإقراراً مبطّناً بأنه لا يضعه في خانة من نهبوا قوت الشعب وتسلّقوا على حساب مال حرام.

فينظر له بما يشبه الامتنان ويتابع:

يا سيدي.. يااااا سيدي، هل عندك صفحة على مواقع التواصل الاجتماعي؟.

يضرب القاضي بمطرقته على الطاولة، ويعقد بين حاجبيه لتنبيه هذا الظريف أن يراعي حدود الاحترام.

فيتابع: لا تظن لا سمح الله أن قصدي التطاول على مقامكم العالي..

ولكني قصدت أنك لو دخلت هذه المواقع لأدهشك الكمّ الهائل من الأفكار العظيمة التي سريعاً ما تتحول لغبار تذروه الرياح.

و أنا كلّ ما أفعله أن أقوم بدور الدجاجة في النبش عن حبّة القمح بين التراب ثم نقلها لجهات تملك قوة وإرادة تنفيذها، أو كأنّي فراشة تحمل حبات الطلع على جناحها وكل حظّها رشفة رحيق.

يتحدّثون عن شيء يدعى براءة اختراع أو حقوق النشر. وأنا أقول: لو حرص صاحبنا على قيمة أفكاره ما فرّط بها أمامَ من هبّ ودبّ، والمفرّط وفق قانونكم أولى بالخسارة.

رغم ذلك، وللأمانة أقول: ما سرقت فكرة إلا وضعت تحتها كلمة "منقول".

(6)

لصّ الانترنيت

يبدو أن ملفّ قضية اللص الظريف كان كبيراً، والاستماع إلى اعترافاته ثمّ البتّ بها، يحتاج إلى أكثر من جلسة.

لكنّ أحداً من الحضور لم يبد تذمراً وكذلك القاضي..

كانوا يستمعون إليه بمتعة كبيرة ويتساءلون ماذا عساه أن يكون قد سرق أيضاً؟.

لمعت عيناه بمكر محبّب ثم قال: أتدري يا سيدي، لولا سرقاتي لرأيت أغلب البيوت خربانة والطلاق أرخص من الفجل أيام كان الفجل رخيصاً.

بدا الفضول على وجه القاضي لكنه اصطنع الوقار وترك المتهم البريء يكمل اعترافاته.

"لقد سرقت أغلب كلمات السرّ من فضائهم الأزرق، والذي كان سيصير "كحلي على نيلي" لولا تدخّلي.

كانت الزوجات يتربصن بأزواجهن لتمسكن عليهم ممسكاً يدلّ على خيانتهم لهنّ عبر محادثات الواتس او الماسنجر وما شابهها من وسائل الاتصال.

كذلك كان الأزواج في استنفار دائم للقط الزوجات بالجرم المشهود.

و أنا.. وأعوذ بالله من كلمة (أنا).

قبل أن يكتشف كلّ شريك ما "يهبّبه" شريكه. أدخل وأمسح كلّ دليل إدانة.. تاركاً رسالة صغيرة:

"كن على حذر.. الكعب العالي ينتظر رأسك". أو..

احذري.. هذه المرة حصل خير.. إن لم تكفّي .. مصيرك بكفّي.

قل لي بربّك يا سيدي، هل هذا ما يدعونه بالتهكير، وأنا كلّ هدفي الحفاظ على صغارهم من سوء المصير.

(7) لصّ المنوعات

قال القاضي للصّ:

يا بني يبدو أنك متورط جداً ويزيد تورّطك أمران: أولهما أنك ضبطت متلبساً بالجرم المشهود.

وثانيهما اعترافك بما اقترفت.. والاعتراف سيّد الأحكام.

هات أيضاً ما تبقى في جعبتك من سرقات.

أخرج اللص من جيبه علبة سجائر ومن الأخرى زجاجة كحول، ففغر القاضي فاه العجب وسأله : من أين لك هذا؟! و كطفل ضبط يمارس ما منع عنه تحت تهديد العقوبات الصارمة أجاب:

- علبة السجائر من سجين لا أعرفه تركها على رفّ الحمّام والزجاجة من سجين آخر خبّأها عن الرقابة حشو وسادته.

- ما قصتك معهما؟ وما دوافعك؟

- هي يا سيدي عادة قديمة تربّيت عليها بأن أصدّق مقولة أنّ التدخين مضر بالصحة، خاصة وأن جهات مسؤولة كتبتها حتى على علب السجائر.

أما الكحول فقاتل صامت.

جارنا المدمن مات بسببه.

وفتاة بريئة اغتصبت تحت وطأته.

وأطفال يعنّفون من أبيهم السكّير..

هل أعدّدُ لك أكثر أم أنت يا سيدي أخبر ؟!

وهكذا بتّ أتصرف بحسن نيّة وأسرق من الناس بخفّة سجائرهم ومشروباتهم الروحية.

بحقّ الله يا سيدي لم سمّوها روحية وأين الروح من ذهاب العقل والاتزان؟!

- هل تظنّ نفسك مخوّلاً بإصلاح الكون.. يا فتى؟!

ثم إن سرقتك لهم لن تمنع مدمناً من معاودة شراء ما فقد.

- فلتكن إذاً عقوبة يستحقونها بهدر أموالهم لاستجلاب المرض.

و للعلم يا سيدي فإني لا أرمي مسروقاتي كما هي، فلعلّ جامع القمامة يرى بها رزقة أتته من السماء.

بل أفتّت السجائر وأسكب الزجاجات، فلا عين رأت ولا أذن سمعت، وأجري وثوابي عند الله.

(8)

لصّ الأبواب

"سرقت أيضاً يا سيدي أبواباً ونوافذ وحتى حيطان. لا تسئ الظن بي يا سيدي.. فالمفترض أنك صرت خبيراً بنواياي البيضاء الموشّاة بالزهر.

هذه القصة بالذّات تحتاج إلى خطّةِ عمل ودراسة تاريخية للمسروق.

مثلاً.. أنا لا أسرق لا سمح الله باب بنك أو نافذة بيت محترم أو جداراً يحمي فقيراً.

أنا أتخيّر زبائني بحكمة.

هناك باب موصد على فتاة تحلم أن تكمل تعليمها كأقرانها، وأهلها يرون أنّ خير مصير لها انتظار نصيبها لعل بغلاً يريحهم من علفها.

أقتلع الباب والنوافذ وأفتح أفقاً للمسكينة لتحلم ثم تقوى على الخروج.

وهناك سجين بريء خلف القضبان لم تجر حتى محاكمته، نخر الصبر والأمل عظامه لسنين منتظراً عدالة السماء، وما من عدالة سوى أن أستخدم شياطيني الرحيمة وأخرجه.

وهنـاك أطفـال في العـراء خرجـوا مـن بيـوتهم لأنّ الحـرب بنـت كلب.

أحمل إليهم الأبواب والنوافذ والجدران التي سـرقتها، فينسـون لحين ما ضعضعته الحرب في نفوسهم.

هنـاك بخيـل يحـرم أطفالـه حـقّ الاكتفـاء بسياسـة التقـتير والتوفير، ويحصّن نقوده خلف أبواب وأقفال.

ومحسوبك خبرة بفتحها أو كسرها أو حتى تفجيرها"...

أوقف القاضي اللص عن الإسهاب في حكايا الأبواب، وأسند رأسه على كفّه يفكّر بنبيّ مختلف عما نزلت به السماوات..

وهو يتخيل كم حكاية لا تزال في جيوب هذا اللصّ الجوّال.

(9)

لصّ النوم

تابع اللص إفادته غير الكاملة، لتعذر سرد سرقاته البسيطة هنا وهناك:

حتى النوم لم ينجُ مني، وسرقته من عيون لا تستحقّ أن يغمض لها جفن.

كشبح تسللت لغرفة نومه ثم أطلقت هناك براغيثَ أحضرتها خصيصاً كرمى لعينيه، في اللحظة التي كاد فيها أن يغفو غارقاً في نعيم الأحلام.

لم تجد كل وسائله في قتل جنودي، لا الصاعق الكهربائي ولا البخّاخ الفعّال ولا حتى الناموسية التي تزمّل بها لتحميه من الاقتحام.

تسألني يا سيدي لماذا هذا الانتقام بحرمانه المنام؟!

كم ربّ أسرة اقترض منه بالربا وأمضى الليل يضرب أخماساً بأسداس ليهتدي لطريقة يفي بها هذا المرابي ماله.

كم عامل عنده جفّ عرقه دون أن ينال حقّه منه فوصل ليله بالنهار.

وذاك الشاب العصاميّ الذي تقدّم لخطبة ابنته، كم ليلة أمضاها يساهر النجوم لأن مصيره بهذا الطاغية محكوم. العدالة تقتضي يا سيدي القاضي كما أراها، أن أسرق نوم هذا النكرة وأهبه لمريض يتألم أو لعاشق أنحل السهاد جسمه أو لعجوز لا تعرف ليلاً من نهار.

صمت اللصّ الظريف ثم أجهش بالبكاء.

أيها القاضي، لقد سبقتك السماء بالحكم علي فاستمع لختام قصتي.

(10)

الخاتمة

"اقضِ ما أنت قاضٍ يا سيدي.. فحقّك أن تنصب موازين العدل كما تراها عين سيادتكم طالما أقسمتم ألا يبات إنسان مظلوماً"

غرق الحضور بالدهشة وبدا لهم اللصّ الظريف كذلك الموسيقيّ الذي عزف فأبكى ثم عزف فأضحك ثم عزف فأنام ثم عزف فأيقظ.

منذ لحظات كان يتقافز كبهلوان لا يأبه من يشهد رقصته أو ما مصير حياته.

و الآن يبدو منكسراً حزيناً يستعجل انفضاض الجلسة ليختلي بهمّه الكبير.

و تحوّل القاضي لأب رؤوف، وراح يسأل اللص الظريف ماذا كان يقصد بانتقام السماء؟

تنهّد اللص حتى كأنّ السماء تصدّعت وخرجت آه شاهقة كأنها ركعة صلاة بين قيام وسجود.

"لقد سرقت قلبي

أنا اللصّ الذي يسرق الكحل من العين، تسرق قلبه امرأة
هل تذكر دليلة يا سيدي كيف قصّت شعر شمشون فصار بلا
حيلة.

كذلك فعلت بي أخت الشمس والقمر.

أنا الذي يوماً ما أبهت للنساء ولا خطر لي أن يصعقني الحبّ.

أقرأ في عينيك وعيون الحضور الدهشة وحقكم أن تدهشوا..

تسألوا.. لم لا تتزوجها؟!

لأنها ببساطة متزوجة ومخلصة لزوجها حتى نقيّ العظم.

رأيتها يوماً تجلس على مقعد في الحديقة مع طفلها! فأحسست
قلبي وقع وتدحرج صوبها.

اصطنعت سبباً لأسمع صوتها فتناثر قلبي المتدحرج شهباً
ونجوماً.

صرت أتردد يومياً على الحديقة وبدأ الطفل يتعلق بي، وهي
تكتفي بابتسامة حيية حين ترى طفلها يلهو معي سعيداً.

من يومها لم أعد ذلك اللصّ الظريف.

لقد استردّ اللّه مستحقّاته مني بأن تسرق قلبي امراة متزوجة
مخلصة ثم تمضي كأنها لم تقترف ذنباً".

لا يهمّ ما كان حكم القاضي بعدها..

فحكم السماء كان أقسى بكثير.

وما زال اللصّ ينتظر أن تسرق هذه السماء زوجها لعلّ احتمالاً ولو واحداً من مليون يكون شقّ نور في جحيم أشواقه، رغم يقينه أنها ستقول:

الإخلاص أن نكون أوفياء حتى لمن رحلوا.

تمّت

الوسادة الغالية

(1)

الحاجة أمّ الاختراع، وقد صارت حاجتي ملحّة للتخلّص من ثرثراتي، ولو انتهكت المحرّمات وسلكت الدروب الملتوية. هداني تفكيري وتمحيصي لتطبيق طريقة المكافحة الحيوية، فرحت أصوّب نحو كلّ فكرة فكرةً مضادّة.

لكنّ أفكاري لم تكن حشراتٍ ضارّة ونافعة، ففي كلّ مرّة كانت تظهر فكرة جديدة عبر التضادّ والاختلاف وأزداد تورّطاً.

أما فكرة البئر والثرثرة في فوهته فطبعاً كانت فكرة غبيّة بجدارة لأن الماء حافظ رهيب للذبذبات والتراب ناقل ممتاز لها، وسيفضحني هسيس السنابل يوماً وطيب الورود.

فكّرت بحرقها، فقادت لي الصدفةُ المقصودة من يخبرني اكتشاف العلماء لحقيقة أن الرماد المطمور يعود للتوهّج بعد قرون فسدّ هذا الخبر باباً جديداً للخلاص.

أخيراً صحت كأرخميدس : "وجدُتها.. وجدُتها"

ومن دون أيّ تأجيل أفرغت وسادتي من قطنها وبدأت أحشوها بالكلمات.

أراكم تضحكون وتستسهلون الأمر كعادة المتفرّج الواقف على الشطّ والناس غرقى.

ما علينا.. اضحكوا.. اضحكوا فالدنيا للضاحكين.

كان أمامي مهمّة شبه مستحيلة أن أجمع كل ما قلت وكتبت عبر خمسين عاماً.

ان أقتصّ من الأثير صوتي وأنزع عن الحيطان ومقاعد الدراسة طفولة خربشاتي.

أن أهكّر الصفحات الأدبية لأسرقني منها.

أن أستردّ أنفاسي التي وزّعتها بالمجّان.

أن.. وأن..

لأحشو وسادتي بها وأنام ملء جفوني بعد سنيّ الأرق.

(2)

حيوات في وسادتي

قضيت وقتاً أخيط الوسادة على ما استودعته فيها. حدّثت نفسي فيما طفت ابتسامة أغمض من ابتسامة الجوكندا على صفحة وجهي:

هكذا.. حتى الجنّ الأزرق لن يهتدي لأدبياتي، وإن خطر للصّ فتق وسادتي سيصاب بالخيبة، حين لن يجد ذهباً ولا فضةً فيها، بل يراعات تضيء وتنطفئ في عتمة الليل، لا تشبع نهمه للنجوم. فنادق سبعة نجوم.. مطاعم ألف نجمة.. نساء مليون وأكثر.

و كانت ليلة ليلاء لا أنساها.

ما إنْ وضعت رأسي لأنام على وسادتي صنيعة يدي وعقلي، حتى أحسست بضجيج الأكوان برأسي.

ما أكذبهم.. وما أكبر غفلتي حين صدقتهم.

كانوا يقولون عن كلماتي أنها قويّة وناعمة كالحرير، فواعدت نفسي بأن أريح رأسي على وسادة أخفّ من ريش النعام، وأسدل الستار للأبد على هوس الكتابة وطاحون الأفكار.

وما كان بحسباني أنّ ما استودعته وسادتي كان حيوات.. حيوات.. منذ الأزل وإلى أبد الآبدين.

(3)

وللصوت لون

كثيراً ما تأخذنا الحياة بعيداً عمّا نتمناه أو ما خططنا له. فإن كنّا من أهل الإيمان بالغيبيات، وجدنا في ذلك إشارة ورضينا بما نراه قد قُسم لنا منذ الأزل.

وإن كنّا من أهل العناد والتصميم، كرّرنا المحاولة ذاتها ولو قرمشت عمرنا كلّه تكّة تكّة.. ولم نقبل المساومة على هدفنا بهدف آخر.

وإن كنّا من أهل .... "لا أجد مسمّى يليق بهم" تساوى بأعيننا ما يأتي وما يروح، ولنا في كلّ هدف بديل نعتاش منه في رحاب اللحظة ونمصّ ضرع المضارع بلا أطلال أو سين تسويف.

المهم.....

أنني حين حشوت وسادتي بترّهاتي، كان ظنّي أنّي أحقق غايتين...

أولهما أن أفرغ رأسي وحياتي من القيل والقال وأشكال الأدب وفنون الكلام، وأنعم براحة البال.

و ثانيهما الاحتفاظ بها لاستعادتها لحظة ملل أو حنين، أو تركها لأحد أبنائي إن صادف أنه مصاب بلوثة الكتابة مثلي ليستوحي من هذيانها أفكاراً جديدة دون نسخ.

لم يخطر ببالي أبداً أن ما أريد غير ما تريد.. وأقصد الحياة.

فما أن وضعت رأسي على الوسادة حتى تناهى لسمعي أنين مكتوم.

أنين عتيق أسودُ من تلك الليلة الكالحة.

أسود؟!

وهل للأصوات ألوان ؟؟؟!!

حتماً فالأصوات لها اشتقاقات ألوان قوس قزح مضافاً لها الأسود الفرد والأبيض المركّب.. وصوت شفّاف كالروح من أمر ربّي.

أخذ الأنين المكتوم يعلو ويعلو حتى كأنه لم يبق سواه في الكون.

تغابيت عن معرفتي به، وصممت أذني عن سماعه بوضع الوسادة فوق رأسي، فصار الأنين استغاثة ونجدة.

هذه القصيدة أعرفها أكثر من جلدي، كممت فاهها قبل أن يكتموه لأنه كان الحقيقة السوداء السافرة.

هي ذاتها المرأة العتيقة المجعّدة التي أطلقت سراحها في رؤية قديمة.. أيام اهتمامي بالرؤى.

ظننتني أعدتها لحبسها واسترحت، فأبت إلا الأنين.

و كأن الدهر ما كان سوى عرّابها لتظلّ حيّة في العالمين.

(4)

القصيدة الطفلة

خالطَ الأنين المكتوم بكاء طفل بطريقة تقطّع نياط القلب، وعهدي أن الطفل لا يبكي إلا من جوع أو موجوعاً كما كانت أمي تردّد على مسمعي أثناء تربيتي لأطفالي.

كان البكاء لقصيدة طفلة، لا أدري أأنجبتها بلحظة نزق أم حبّ، ثم نسيتها في زحمة التناسل الأدبيّ ونسيت حتى أن أطلق عليها اسماً لسهولة التمييز.

أيّ سماء تغفر لأمّ تنجب أطفالاً ثمّ تركنهم في زوايا الإهمال دون اهتمام بأكلهم ونومهم وصحّتهم وهندامهم، ثم لو حشر واحد منهم مع ألف طفل لعرفته وقالت هذا الطفل من رحمي، وأبت عليها أمومتها أن ينسب لسواها.

خطر لي أن أفتق الوسادة قليلاً وأنسل منها القصيدة الطفلة، أن أضمها لصدري وأحنو على غربتها في فوضى المقالات والروايات والمعلّقات علّي أغفر لنفسي لا مبالاتي، لكن الصوت خفت فجأة وعلّلت نفسي أنها تصطنع الدهشة مع أقرانها من قصائد الهايكو، وما أكثر ما أعلّل نفسي ليستمر الهروب.

قصيدتي الطفلة، أقسم أيضاً أنها أتتني عبر الرؤيا حيث كانت موءودة في التراب وتجاهد في رفع رأسها لتلتقط الهواء بشهقات متتالية، وقد جئت بها لأمّي بشعرها الأسود وعينيها السوداوين البراقتين، فقالت دون حتى أن تلتفت : "أعيديها من حيث أتت ماذا سيقول الناس عنّا "، لكني بكيت وقلت : "والله حاولت لكنها تصرّ على الحياة".

ستقولون إني أعمد إلى أسلوب التشويق لأمسك القصّة من نواصيها، وأنا لي صبر الجمال على ما تقولون، وسترون يوماً من أكون إذا "ثبيت لي الوسادة".

(5)

حالة عصيان

قصتي القصيرة جداً التي فازت بالمرتبة الأولى في المرّة الوحيدة التي شاركت بها بماراثون السباق، أعلنت حالة تمرّد وعصيان. قصة قصيرة جداً لقصرها لا تكاد تُرى، تحقّق مقولة سخيفة أن كل قصير لا يخلو من فتنة، إلا إذا فسّرنا الفتنة على أنها السحر والجمال، لا إثارة البلبلة.

ورغم ضآلتها بالأبعاد الثلاثة المحسوسة فإنها تحرّض سجناء وسادتي ضدّي، كأن كلّ أبعاد الكون اللا مرئية وكلّ شياطين وادي عبقر يدعمونها.

من كان يصدّق ؟؟!!

هكذا تأتيك الضربة القاصمة من حيث لا تدري، لتبعثر حساباتك الرياضية وحنكتك الاختباراتية هباء منثوراً.

تقول نفسي إن الغرور أصابها بعد الفوز، فتبتسم نفسي الأخرى في سخرية وتؤثر الصمت.

إما نفسي الثالثة فتصغي للهتافات داخل الوسادة علّها تلتقط شتيمة أو لفظاً مريباً، فلا تسمع إلا تلاطم بحور الشعر وارتفاع منسوب المدّ والجزر حتى كأنها ليلة اكتمال القمر.

نفسي الرابعة أكثر واقعيّة توبّخني قائلة: "هل تظنين أن الخلاص يكون بحشر أفكارك مهما كانت قوالبها بزنزانة وسادتك.. كوني على حذر فالوسائد كطناجر البخار".

يسود الصمت، بعد فرقعة وقرقعة وقعقعة.

يرتجف قلبي هلعاً.

لا أظن هذه المجنونة فعلتها حين عجزت عن قطع الخيطان بأن فجّرت نفسها وكل مساجين وسادتي ليكون موتهم علامة فارقة لحياة الكلمة الحرّة.

(6)

انسلاخ

من كان يصدّق أن وسادتي ستستوعب كلّ هذا الاكتظاظ السكانيّ من كلّ عرق ولون.

أعراق نخبويّة صافية وأخرى خلاسيّة هجينة.. ولا عرق بينها يباهي بأزرقه أو يلعن سواده.

ثم بدت لي بلحظة مثل .. USB أو كملفّ مضغوط اختزل داخله آلاف الصور والحكايا.

وبلمحة خاطفة رأيتها مدارات وأفلاكاً.. ملائكة وشياطين..

ثم ثقباً هائلاً أسود يبتلع كغول كلّ هذه الأوهام من هبائها حتى مجرّاتها.

وشوشت الوسادة وقاطنيها:

"أنا ربّكم الأعلى.. أقداركم ومصائركم بيدي.. إن شئت أنهيكم أو شئت أبعثكم خلقاً جديداً آخر".

لكن الذي حصل أن ربوبيّتي ظلّت قلقانة وما زادتها السيادة إلا رقاً وعبودية، وصرت أحسد حشو الوسادة على سكينته مقابل زلزالي الليلي الذي لا تبدو له نهاية.

ثم كأنّ جفني غمض لبرهة فتجلّت لي قصيدة كالعروس كنت كتبتها في زمن مضى وانقضى، وعاتبتني دامعة:

كيف طاوعك قلبك أن تتنكري لقديمك بما استجدّ.

حاولت أن أبرّر تقلّباتي وتغير رؤاي وآرائي وأن سنّة الكون التغيّر وأني لا أنكرها وإنما هي وحي مرحلة ولكل مرحلة إيحاءاتها.

فما كان إلا أن تلاشت كبخار، وانتفضت مذعورة من محاكمة غير عادلة لا أدري من فينا الظالم فيها ومن المظلوم.

(7)

حوار الغيوم

ولّما طال الليل وعزّ النوم، رميتُ الوسادة أرضاً فسمعتُ طقطقة عظام، وشفّ القماش عن عيون دامعة لكنها تفيض محبّة. كنّ يرقبن أرقي بحنوٍّ، فأدمعن عيني، ومن أنجبتهن صرن أمهاتي آن ضعفي.

ليس في طبع ثرثراتي الشماتة التي قد تعتريني كأيّ كائن بشري خالطت باؤه الشرّ، لأنهن ببساطة فطرة الحياة التي لا تسعى لمجد ولا تبتغي أجراً ولا تنافس لتعتلي عروش الأدب.

قصائدي كريمات الأصل مهذّبات نهلن من أصفى المشارب ورضعن لبان الحياة غير المغشوش.

لذلك أشفقن لحالي ولبثن منتظرات بالصبر موقنات بالفرج نادمات على هيجان حرّضته إحداهن بنوبة انحباس قهريّ.

وأنا وقد اعتدلت في سريري وأوشك الفجر أن ينبلج، تسلّل شبحي إلى الورق يبتغي التدوين كعادته طوال عمري، فنهرته وأجلسته قبالتي نضيّع الوقت بحوار وليد لحظته..

اصطنع الشبح دور المحاور الأديب المتأدّب وراح يصيغ الأسئلة التي أشتهيها ولم يسألني إياها أحد، وكنت أفيض أجوبة كساقية ضلّت هداها فقادها الضلال إلى أناها.

لا لم تكن أسئلة..

كانت رقصة تهتزّ لها الأرض وتتنزل السماوات..

كانت عناق غيوم..

كانت وِرداً صوفيّاً..

لم يكن في الحوار إلانا وقد غاب الأغيار فكأن المقصود منه أنا لا القارئ، فغمرتني نشوة الخلق للحظة وغبت عن الوجود، ورغبة وحيدة تتملكني لماذا لا يكون الجميع أشباحاً؟!

الأشباح لا تخيف والظلال أكثر مصداقية وتحرّراً.

الملامح والتفاصيل قيود واحتراف وصنعة.

أما الأشباح فهيولى وبرزخ بين المادة والروح، وطوبى لمن لاقى شبحه في بهرج الأضواء والألوان.

(8)

قسم

قلت لنفسي والفجر يشهد قسمي وسقمي:

بعد اليوم لن أقرأ ، القراءة تحرّض الكتابة.

بعد اليوم سأمحو الحبّ بممحاة النسيان، فالحبّ أقوى أسباب الكتابة.

بعد اليوم لن يزعجني خذلان أو تفرحني الألوان أو أتعاطف مع ظلم الإنسان.

بعد اليوم سيجد شياطين الشعر ضحيّة غيري، فالأرض لا تخلو من السذّج من أهل الإدمان والتدوين.

سأحيا ما بقي لي من عمر في صمت الشاهد المحايد.

سأستبدل هذه الوسادة بوسادة أخرى رغم صعوبة هذا الأمر.. وأنام قريرة العين.

ليست المرة الأولى التي أقسم بها على الهجران ليلاً، ثم تشرق الشمس فأنسى أَيْماني وحلفاني، وكل مرّة أدّعي أن هذه المرّة لن أحنث بالقسم وسترون يا كلّ سكّان رأسي الثرثارين.

حسناً.. ماذا ستفعلين بدل الكتابة، فحواسك كلها تتآمر ضدّك وتبتكر من كل إحساس فكرة تختار لها قالباً لتولد نثراً أو شعراً أو مقالاً أو قصة.....

سأفتح حانوتاً يعتاش منه الخلق الفمّ الثرثار لا يحيا دون وقود، وبيع الطعام أشرف من توزيع الكلام الفارغ بالمجّان.

حانوت؟!

تئنّ مفاصل ظهري سلفاً وتعترض أنوثتي بألف لافتة استنكار وتنهض سنواتي الكثيرة في وجهي وتختال في ترف شاعريتي وتسخر مني شهادتي الجامعية الصفراء المركونة في خزانتي منذ سنين الشباب.

لكني أصمّ الأذن عنها جميعاً و أعاود التقلّب على وسادتي وأنا أتململ:

متى سيطلع الصباح ؟!

(9)

ولادة

أنـا لا أقصـف عمـر وسـادتي بهـذا الفصـل التاسـع أو الشـهر التاسـع كمـا تحسـبون، ولأنـي وليّـة أمرهـا أنهـي حياتهـا كمـا تتخيلون.

لكني بعد أن طلع الصباح علي ولم أنم شعرت بـآلام مخاض ردّتني ثلاثين عاماً إلى الوراء ووجدتني أطلق سراح سباياي كأن الفاعل آخر ليس أنا.

فتقت الوسادة ومددت يدي لأطلقهن حرائر كما أتين للدنيا فلم أقبض إلا على الريش.

زغـب يتطـاير وأريـاش مـن كـلّ الأحجـام مـلأت سـريري ثـم غرفتي فبيتي فبيوت الجيران فالمدينة بأسرها.

لكني لم أجد لحيواتي في وسادتي أي أثر.

أصابني الهلع حين تذكرت قول أبي إنَّ قبور الأولياء فارغة..

ووسادتي كانت قبر تجلّياتي.

ووجـدتني ألـوذ كجـنين بحضـن خرافـة عمري.."أوليـاء اللّه لا يطّلع علي ولادتهم ولا على موتهم أحد".

أعـدت القطـن بهـدوء لوسـادتي، ونهضـت مـن سـريري أسـند فقـرات ظهـري المنقرصـة ببـاطن كفّـي، وأسـتعين بالزهـايمر علـى سنيّ ما بعد الستين.

تمّت.. حتى ولادة جديدة من محاق.

ظلال أنثوية

استهلال

أستميحكم عذرًا أيها السادة، فأنا ومنذ البدء لم تكن نيَّتي أن أدوِّن شهادتي، وكنت أؤثر أن أعبر كما عبر سواي، فلطالما وجدت التدوين جريمة لا تقلُّ فداحة عن سواها، ولم تزد الطين إلا بلَّة، منذ عصر اختراع اللغة وحتى اللحظة، حيث يقع القارئ تحت سطوة ما راق له، فإذا به أسير رؤى أو آراء الكاتب لا يستطيع أو لا يبتغي منها انعتاقًا. وليس في الأمر ضير، بل أنا واثقة مما للكلمة الطيِّبة سواء كتبت أو نطقت من أثر، وكم لها قدرة جبارة على التغيير وتحريض الخير، وكيف يتحول ما نقرؤه إلى سلوك، فتتلبّسنا الكلمة كفعل واقع. لكنني أيضًا واثقة بالمقابل أن النصّ قد يكون ككاتبه مغلقًا، حابسًا محبوسًا يدور كقوقعة حول نفسه، فيما القارئ كحلزون يتبع دورة القوقعة في استلاب واضح. وأقولها صراحة إنني لطالما سمعت قرقرة الحروف في جوفي، فأسارع لإسكاتها بفتات اللامبالاة والتهكم من عبث أي فعل نهايته الصمت الأبدي، وكان الأمر سينتهي وفق ما أردت، لولا هذا الجيشان الذي ازداد في داخلي، فوجدت أن لا مناص من إكمال اللعبة حتى النهاية، فلعلَّني لست سوى أداة لقوة كونية جبَّارة تسيِّر خطاي وتوهمني أني صاحبة القرار والحسم والفصل، فملت إلى أن أضحك عليها كما ضحكت علي. وللتوضيح، وحتى

لا تذهب بكم الظنون بعيدًا، عليَّ أن أوضح أن شهادتي تنطلق بدءًا من نفسي وتعود إليها، فكلُّ فعل صغيراً كان أم كبيراً لا أبرِّئ نفسي عنه، وهكذا فما أدونه هنا عني كما عن أيِّ عابر فيكم، وما القصد منه الإدانة، بل صور تمرُّ أمام عيني فألتقطها كعدسة الكاميرا ليس إلا، فلا تتأهبوا لرجم بيتي الزجاجيَّ بحجارتكم، ولا تصبُّوا عليَّ وابلاً من لعناتكم، فما لبيتي سقف سوى السماء. هكذا أيها السادة وجدت نفسي عالقة في مسرحية، أنا الكاتب – أو هكذا بدا لي – والمخرج والممثل بآن، وكانت الأدوار تتناوب عليَّ، فمرة أراني البطل ومرة أكون مجرد كومبارس مهمل قد يؤدي دوره صامتًا لدقائق معدودة، ولكم أن تتصوروا الكمَّ الهائل من الأدوار الذي قمت بها متنقلة بين طرفي التضاد من خير وشرف أو رذيلة وفضيلة، ولتعجبوا ما طاب لكم العجب، من هذا العالم اللامتناه الذي اصطلح على تسميته "النفس" كم به من أدوار متناقضة وغير عادلة أو منسجمة، وكيف لهذه النفس أن تكون مجمع التناقضات من فرعون إلى موسى معًا، بين شيطان وملاك. وكأني بكلِّ واحد منكم، يجذبني لأكتب عنه، ويغريني بتفاصيل قصته لأجسدها كدورٍ على مسرح روايتي، فأحار من أين أبدؤها وكيف أنهيها، ما دام لا نهاية لفصولها، ولست ربَّة الأقدار لأحتم بمصير شخصياتها، فأؤثر أن أتركها معلقة وفي القلب صلاة تتمنى الخير والنهايات السعيدة للجميع، ولكن هيهات أن يكون ذلك دومًا في عالم الأسباب والنتائج، أو عالم المصادفات العمياء.

(1)

سولا

كـان لأبـي أرضـان يفلحهمـا - أرضـه الغربيـة وأمـي- يا له من مستهلٍ قديم لقصتك الحديثة يا سولا، على فكرة... هل حقًا اسمك سولا أم هو اسمك الحركيّ أو المهنيّ؟

تضحك بمجون كأنها تلقَّت عربونًا سلفًا من زبون يخلع على عجل مكتبه وهيلمانه وشاربيه وأمره ونهيه، ويبقي ناره استعدادًا لطعم مختلف.

"أجل هو اسم إحدى عشيقات أبي التي تعلَّق بها كأكثر من عابرة سرير، ركلته بعد أن امتصت ماله مع ماء الشهوة، وصادف أن رزق بي في أوج عماه.

ثم إلى ماذا تلمِّحين يا أستاذة؟ هل تظنين أني أستحي من عملي وهو مصدر رزقي..

نحن نعمل في الضوء برخصة رسمية، كما في كلّ دول العالم. بيوت الدعارة يا أستاذة ليست بنت اليوم، لأنها مهنة قديمة جدًا. حلَّت مشكلتين معًا.. أولهما باعتبارها وسيلة لكسب العيش حين تغلق كلُّ السبل أمام النساء، وثانيها تفهّم لرغبات الجنس

الآخر الذي يكون دائمًا وراء قدومه إما شبق الذكورة أو كبت قديم أو فضول اكتشاف الأنثى خاصة عند اليافعين".

" -عفوًا.. لست هنا لأقاضيك أو لتبرري لي، أنا كاتبة وأعتبر كتابتي ناقصة وموارية إن لم ألج عوالم الستر والخفاء، كما عوالم النور".

-يا أستاذة.. لا تولد امرأة بنت هوى، ولو وجدت هواء نظيفًا ما هوت.

لم يكن في نيَّتي أن أكون سولا التي ترينها الآن بحمرتها الفاقعة كدعوة صارخة للجنس، كنت مثلك في طفولتي أعشق القصص والروايات وأهرب من مجون أبي إلى رحب فضاءاتها. أنا لم أرث العهر عنه كما يقول عني أهل قريتي، لكن دروب الانحراف تنفتح فجأة حين ينحرف من يفترض أن يكون قدوتي فتقوده شياطينه لسريري بدل سرير أمي...

اذهبي يا أستاذة وأغلقي الباب وراءك، فلدينا عمل مكثَّف اليوم، وبيتنا يثبت وجوده مع الزمن باستقطاب أكبر رؤوس هذا البلد..

شكرًا لأنك تجرّأت على دخول بيتنا المشبوه، وأنتظر أن تهديني نسخة من كتابك حين صدوره..

ولكني لا أعدك أن يتاح لي أن أقرأه، فالعمل كثيرًا ما يشغل عن المقال.

(2)

مزاج نسويّ

أواه ما أحرقَ الذكرى

أنتِ تنضحينَ حبًّا ، من مسامٍ خُلقت لتُرشفَ، في تلك الأماسي البعيدةِ.

وأنا أؤجلكِ كوجبةٍ مضمونةٍ، لحينِ انتهاءِ نشرةِ آخرِ الأخبار..

دون أن ألاحظَ انسحابَكِ لنومٍ مصطنعٍ، مع استدارةِ ظهرٍ ما عاد مكشوفًا.

ثمَّ ثورةٌ في داخلي واستغرابي لمزاجِ النساءِ المتقلِّبِ بين أرغبُ..

ولم أعدْ أرغبُ.

ودمعتان

يمكنُ لي بعدَ كلِّ هذا الزمن، تخيلهما عالقتين على أهدابك السوداء.

(3)

نكتار

ما أخفَّ هذه الروح وما أشفَّها، وما أظلم هذا الجسد الثقيل كيف طاق حبسها.

أسألها بشغف عن معنى اسمها، بعد أن يصلني إحساس بأن رتاج الصمت سينزلق قليلاً ليسمح لعصافيرها وفراشاتها بالرفيف ما بيننا ولزهور وجهها الذابلة بالتفتح من جديد ولسيالة روحها أن تسقسق كنبع بعد غيض.

تبتسم وتجيب بنشوة:

"شراب الآلهة.. سمَّاني إياه أبي السكران دومًا بالأساطير التي يراها الحقيقة المغيَّبة بأوهام البشر، لدرجة أنهم ترجموا اسمي على أنه العصير كي لا يكفّروا كما يتصورون".

"يا سلام - أهتف من كل قلبي - ما أجمل معناه وأيّ موسيقا تنساب من حروفه الخمس كأنها أوتار".

تصل محبتي غير المدَّعية إلى هذه الروح الخفيفة كريشة فتنفرد أساريرها كأنها الغريب الذي وجد وطنا يلمَّه.

تضحك وهي تقول:

"مالك ومريضة نفسية مثلي، أنهى أمرها وبتَّ فيه الأطباء بإجماعهم على أن ما بها هو الفصام. كل تصرفاتي جعلتهم يغلقون أي باب موارب يسمح بولوج تشخيص مغاير. وابتدأت رحلة العذاب، بتناول حبوب مهدئة، الامتناع عنها يعني نوبات هستيرية تفضي للجنون أو الانتحار".

لكل ظلٍّ حقيقة لكلِّ مظهر جذور ونكتار وفق انطباع مبدأي ضحية من ضحايا البشرية التي زاد الطين بلة أنها عربية.

"كيف كانت طفولتك يا نكتار؟"

تسرح بعيدًا وأشعر بروحها كأنها تلاشت تمامًا ويصبح صوتها قيثارة بوح:

"كان أبي إلهي الجميل وكانت حكاياته معبدي. هل يُرضع الأب أطفاله؟! أجل لقد فعل.. أستغرب كيف تعامى عن الشر وقد شرب جرعاته المرَّة أينما حل وارتحل. فأرضعني كل جميل من الخير والحق والسمو. فظننت أن الدنيا فضاءات مفتوحة لجناحيَّ الذين تحول زغبهما لريش"...

بدأت الكآبة تعاودها وهي تبتلع ريقها وغصتها:

"ثم ابتدأت رحلة قصقصة الأجنحة وبناء الجدران، لأجد نفسي حبيسة نفسي والإحباط تحول إلى صراخ وتكسير لا يشبهاني. من منا الحقيقية يا أستاذة.. أنا أم أنا. روحي الشفيفة أم نفسي الساخطة؟".

أضم نكتار كأم.. وأنا أمسح دمعها المقهور مع إحساس كبير بعجزي.. وأقول لها:

"لا جواب لدي سوى أن روحك تليق بمتحف لا بمزبلة".

ونغادر لتنتقي لي غلافًا لروايتي ثم نشرب معًا رحيق الآلهة.

(4)

نعاس يأبى الصحوة

أقسم أني بكامل قواي العقلية، وعن سبق إصرار وتصميم، اخترت ما تدعونه العنوسة وأسميه حق تقرير المصير. ولعلكم أحقُّ مني بنظرات الشفقة، تلك التي ترمقونني بها في رواحي وإيابي، حزنًا على شبابي الذي ولَّى دون رباط الزوج "المقدَّس" أو اختبار مشاعر الأمومة ما بين حمل وإنجاب وتربية.

ناديا أيها القوم لم تزل بعيني نفسها رغم الزمن العابر.. تلك الشابة التي رغب بها الكثير من شباب البلدة وعبثًا جربوا خطب ودِّها وحين كانت ترفض كانوا ينعتونها بالصلف والغرور، مؤكدين أنه سيأتي اليوم الذي تندم فيه على ما ضيَّعت من فرص ذهبية، فقريبًا ستفترسها الوحدة والوحشة ولن تجد ابنًا يناديها ماما أو يكون عونها في عجزها.

هكذا أنتم دومًا عبيد لما ألفتم وتعارفتم عليه حتى صار قانونًا لازمًا الخارج عنه إما متمرد أو غبيٌّ.

ولست أدري كيف تختصر بنظركم كل العلاقات الإنسانية بصكٍّ زوجية، ولما لا يكون طفل شردته الحرب أحقَّ بأمومتي من طفل أنجبه لو استبعدنا "أنا" الجينات الحاكمة المستبدة.

كونوا ما شئتم يا قوم، وأبعدوا عيونكم عني لأنها لن ترى كم طفل تربَّى بحضني وكم يافع احتاج مشورتي وكم شاب اعتبرني أمه دون أن يكون حبلنا السرِّي قطعة لحم.

ولن تروا كم أنا أكثر حرية وسعادة منكم في خياراتي المتعددة المفتوحة أمام خياركم القدريِّ الوحيد.

أما بشأن نهاية كل منا وقصة الاحتياجات.. فمن منكم يجزم ببرِّ أبنائه وجحود من أحببتهم.

ربما بغد لناظره قريب.. في حوار مفتوح لا جدل عقيم.. سترون كم الحياة أرحب من معاييركم للعنوسة من حيث إطلاقها على من فاتها قطار الزواج الذي يطحنكم بعجلاته وأنتم تتغنون به.. كقرار لا خيار. وربما رأيتم العنس هو النعس.. لقلوب وعقول تأبى الصحوة.. من يدري؟!

(5)

أم الشهيد

لو كنت أعلم أني أنجب ابني للموت في زهوة شبابه، لآثرت أن أرمي رحمًا حمل وثديًا أرضع للكلاب، قبل أن أرى روحي تنطفئ كشمس لتحل لعنة الظلام على ما تبقى لي في حاسوب عمري...

عمري الذي توقف لحظة جاءني الخبر، والباقي منه لدغات لا تنتهي لعقارب الساعة في انتظار مديد ليس له قلب، فالرصاصة الطائشة التي اخترقت قلبه تابعت طريقها المرسوم لترميني معه..

زغاريد تجلجل في أذني مع نواح النائحات ونسوة جئن مهنئات بأن صار اسمي أم الشهيد، وأن هذا الاسم تاج أمومتي وفخر عائلتي. وأنا مشلولة القوى أعجز عن فهم كل هذه الترَّهات، فهل مجد الشهادة سيعيده لحضني لأشمشم عميقًا رائحته.

عقلي يجاهد ليسلم ببدهية أن الحرب طاحون عمياء لا تفرق بين ظالم وبريء.. أما قلبي فيزأر كلبوة جريحة قائلاً خذوا وطني وبيتي وسريري وأعيدوا لي فلذة كبدي.

أيتها الأمهات المفجوعات مثلي.. دموعكن عزيزة علي.. ولكنكن تبكين حرقتكن لا حرقتي وهيهات دموعكن تطفئ ناري، وأنتن يا صديقاتي كم أمتنُّ لدعواتكن لي للحياة والخروج من خباء حزني، لكني كلما هممت أن أفعل حاصرتني تفاصيل طفولته وصباه وشبابه، فانكفئ على ذاتي كي لا أفسد رغبتكن بالحياة وآمالاً واهية واهمة.

ولطفاً يا كل الآخرين.. لا تكرروا على مسمعي قولكم.. العوض بسلامتك وسلامة أخوته.. فليس أسخف من كلمة العوض... وكأن أحدًا يقدر أن يحلَّ مكان آخر في قلب أم.

لا تحزن لأجلي بنيّ.. لأنك تركتني ورحلت وأنك أوجعتني بل ذبحتني عن غير قصد.. بل أنا من عليها أن تعتذر فوالله إن فطرة الأمومة عمياء.. لو تفكرت قبل الإنجاب باحتمال أن تشهد موت بعضها.. ما أنجبت.

(6)

فتنة

لمْ يعدْ التجاهلُ مجديًا، كما أنَّ الصدَّ يزيده إصرارًا ورغبةً.

ها هي رسالةٌ جديدةٌ في بريدي الالكتروني، يمكنني أن أحرزَ سلفًا مصدرها حتى قبل فتحِ علبةِ البريدِ، كعادته كلَّ صباح. العباراتُ ذاتها يرددها بطريقةٍ تزيدني نفورًا، والغزلُ الممجوجُ الذي لديَّ يقينٌ أنه قاله لسواي مرَّاتٍ ومرَّات:

"أما آن أن تليني وترقّي، لصبٍّ في هواكِ، غير التفاح الناضج حلفَ ألا يذوق".

وأكاد أسمعُ صليلَ الرغبة في دمه:

"تعالي قبل حلولِ الخريفِ، فعمَّا قريب يولّي زمنُ النضجِ، يبهتُ اللونُ وتتلاشى الرائحةُ ويصبح المذاقُ الطازجُ كريهًا، فتسقطين وحيدةً متعفنةً، كأنك ما زهوت على غصنِ الحياةِ الأخضر".

برأسي الصغيرِ لمعتْ فكرةٌ عاجلتها بقرارٍ سريعٍ. أناملي ترقصُ بخفَّةٍ على لوحة المفاتيحِ، والحروفُ شهبٌ تتساقط على

الفراغِ الأبيض، والوعدُ أبوابٌ مشرعةٌ لعاشقِ الوهمِ الذي لا يشبع. "لا بأس، انتظرني، سيأتيك ردِّي بعدَ ثلاثِ ليالٍ سويًّا".

لا أعلمُ كيف مرَّت تلك الليالي عليه، في احتراقه شوقًا للثم وضمٍّ، ولا النارُ التي اشتعلت في سريره، ولا إحساسه الخفي بالنصرِ كصيادٍ أفلحَ في قنصِ غزالته الطريدة. لكني أعلمُ أن التفاحةَ الناضجةَ إن قضتْ أمرًا فعلته.

كجنيَّة تسللتُ إلى حاسوبه، أجريتُ بلمحِ السحرِ عمليةَ استعادةٍ لكلِّ ما في سلة المحذوفاتِ من أعقابِ التفاحِ الأخضرِ المقضومِ ورسائلِ الاشتهاء، وأعدتُ إرسالها من جديد عقبًا عقبًا إليه.

بعد ثلاثِ ليالٍ سويّا، بلغني أنه كرهَ التفاحَ عن بكرةِ أبيه، وصارَ محرَّمًا بعرفه كفاكهةٍ تؤجِّجُ الرغبة وتثيرُ الفتنة، والكثيرون لشيخ تحريم التفاح على إثره ماضون.

(7)

فارس الحلم

نظرت من جديد إلى ساعتي، ثمَّ سرحت في الدروب محاولة التخمين.. من أيِّها سيهلُّ طيفه.

كان الوعد قبل عشرين عامًا أن يأتيني على حصان أبيض، فارسًا لا يشقُّ له غبار، يأخذني معه إلى مدينة الأحلام بعد أن يتوجني بإكليل زهر جمع وروده من كل أرض مرَّ بها في طريقه إلي.. ليعلنني أميرة الحبِّ الخالد.

وفي كلِّ سنة كنت أمحو تفصيلاً من اللوحة الحالمة..

مرة لا داعي لإكليل الورد.. ومرة بعدها ليس بالضرورة ارتداء الفستان الأبيض فالسعادة ليست ثوب عرس... وهكذا وصولاً إلى فكرة أن لا بأس إن لم يكن شابًا، أو حتى إن أتى راجلاً لا على فرس تسابق الريح.

تغيرت ملامح الحلم تمامًا، حتى اختصر بفكرة الزواج بحدِّ ذاتها للخلاص من رعب قضاء ما تبقى من العمر وحيدة دون أنيس.

ثم بعدما ولَّى زمن الأحلام، دقَّ بابي راغبًا.

لم تأت به الدروب الممتدة أمامي، فعريسي المنتظر الذي نذرت له انتظار عمر لم يكن إلا جاري الطيب الذي رفضته مرارًا أيام صباي منشغلة بصورة نسجت خيوطها بأوهامي الجميلة.

هو أيضًا كنت عروس أحلامه الشابة، وقد راوده حلمه القديم بعد وفاة زوجته فجاء يتلمس لطف القبول..

آه كم غريبة هي الحياة، كيف لي أن أعلم حينها أن السعادة قاب قوسين، وأنا أتطاول لأبلغ وهم شاهقها، وكم ضيَّعت عليَّ وعليك من عمر يا فارسي الجميل.

(8)

لستُ لي

أنا يا صديقتي لستُ لي

قبل الزواجِ كنتُ لأهلي، بعد الزواج صرتُ لأهلي وأولادي وبعلي، رغم أنهم لهم ما لهم وما لي.

أنا لستُ ليعبَرَ عمري، وليس لي مني شيء: لا وقتي.. ولا عملي، لا اهتمامي.. ولا مالي، حتى الرب استوطن بدل قلبي عقلي.

وكنت كثور في عنقه نير أدور وأدور، أفلح وأمنح ما بين خوفي وخجلي.

فجأة وكان الشيب قد غزا مفرقي، وصار لعظامي صرير باب صدئ تلفَّتُ حولي.

وجدتني وحيدة حتى النخاع ولم تزل الأفواه والأيدي تستنزف قولي وفعلي.

فصرخت: أقيلوني من أنواتكم، فلي أناي.. وسأغني ولو مرَّة موالي.

هكذا خرجت من باب اللاعودة، تشيعني عيون ذبحتني محبتها من الوريد إلى الوريد. أردت أن أختار مرة ما أريد وأن أقول للدنيا:

لـن أمنحـك بعـد لا خـدًا أيمـن ولا أيسـر لتصـفعيه بتسـليمي ورضاي.

أن تكون مضحيًا، تلك سمة الأخيار الطيبين، حيث تفيض النفس فطرة بكرم سجاياها، لكن المطبَّ الأكبر أن يكتب عليك أن تكون دومًا كبش الفداء، لأن كرمك سيقترن مع الزمن بتفضيل أولوياتهم على أولوياتك، وأن تمحق أناك لتكبر هالاتهم، فإذا ما فكرت يومًا بذاتك غلَّك خجل متجذر في النفس رضعته وتربيت عليه، فيصبح منحك فعلاً لازم الوجوب لا فضل لك فيه.

وحين من سجف الصمت يخرج صوتك، سيخرج ناشزًا غريبًا كنكرة في محفل معاريف، سينظرون إليك وكأنك جدار آيل للسقوط كانوا يظنونه حائط مبكى أو محجَّ احتياجاتهم، ولا تستغرب إذا ما نعتوك بالأنانية.

ستمضي في الدروب وحدك، وأنت تعلم أنك الوحيد أنَّى الدروب سلكت، ستحفر في الصخر وقد ولَّى العمر وتوسَّع براحتيك الضيق، وتجدِّف بذراعيك وأنت الغريق.

لن تستسلم، ستبدأ من جديد في ركنك القصيِّ ببداية تليق بالنهاية، لأنك اخترت أن تكون الحرّ، في فضاءات لا تأسرها رغبات البشر.

(9)

وللضعف قوة

سأقصُّ عليك حكايتي يا حضرة الأديبة من الآخر وصولاً لنقطة البدء لعلك تجدين بها ما يستحقُّ أن يضمَّه كتابك، وليست قصتي بأحسن القصص تطرب لها الأذن وتتوق لتفاصيلها النفس، بل هي كسواها من حكايات بلدنا مرَّة المذاق ناشزة الوقع، تجترُّ عبر الزمن من قبل الجواري.. حتى كأنها بلا نهاية.

وآخرها.. هو ما حدث قبل ساعات، حين مررت بمحل الزهور لأحضر لك باقة نرجس لعلمي أنك من عشاقه، فرمقني البائع بذات نظرة الريب التي ينظر إلي بها الجميع على اعتباري مطلَّقة، ورأيت شياطينه توسوس له أنني أشتري الورود لموعد غرامي، فيما عيناه تسبران تفاصيلي بشهوة مقرفة.

وفي عودة أبعد قليلاً.. ذهبت منذ شهور بأوراقي للتقديم على وظيفة، ومعي شهادتي الجامعية ووثائق تؤكد خبراتي المتعددة. لكن عينيِّ المدير لم ترَ أيًا منها بل راحتا تنتقلان ما بيني وبين كلمة مطلَّقة، فقد وجد في الكلمة ضالته المنشودة ولم يتوقع أن يكون نصيبه بعد أيام صفعة تليق بدابّة يرتدي ربطة عنق.

هل أعود أكثر فأكثر إلى الوراء.. للحظة قراري الانفصال وطلب التفريق، هل أعود إلى وشوشات النسوة ونسج الحكايا وهنَّ

الأكثر ظلمًا وانطفاء، أو لندب الأمّ التي لا تدري كيف ستواجه المجتمع بما اقترفت ابنتها، أو لشرف الأخوة وفرض الحظر والمنع، خوفًا على سمعة مهلهلة، فكأن الطلاق انتقال من سجن إلى آخر.. أو لشفقة الأصحاب.. والمواساة بكلمات بائسة تزيد الظلام حلكة.

وهل كانوا سيسمعوني لو قلت أن المصطلح برمَّته باطل، لأن هناك أيضًا مطلِّقة بكسر اللام.. كما هناك مطلَّقة، لأنه فعل إن كان أحادي الجانب، فهو بيد الزوج أو الزوجة ولا دخل لمسألة العصمة هنا. وهيهات يكون اتفاقًا كما يليق بإنسانيتنا، وكما يحصل الزواج بالتراضي.. يكون التفريق.

اكتبي.. يا صديقتي اكتبي اكتبي عن دفتر العائلة الذي كرَّم المرأة بجعلها الزوجة الأولى أو الثانية أو الثالثة أو الرابعة...

اكتبي عن زوجة ثانية وجدتها يومًا قد صارت على الدفتر.. فمزقت ورقتي إكراماً لها ولي..

اكتبي عن اهجروهن بالمضاجع كعقاب.. وكأن المضجع جائزة من الزوج للزوجة.. وحريٌّ بالمرأة أن تهجر إن عاد زوجها سكرانًا يطالبها بحقوقه فلا يقال لها إن اعترضت إلا اصبري فللزوجة أن تطيع زوجها حفاظًا على الأسرة.

اكتبي عن اضربوهن.. فالعصا لمن عصا.. ولا تسألي عن رضوض ستشفى مع الزمن.. بل ضميني لأنسى رض القلب.

أجل يا صديقتي، لقد تزوجته بعد قصة حبّ عاصفة دامت لسنوات.. وكنت سعيدة بكل ما أقدمه باسم الحب.. بدءًا من قبولي به بلا مهر أو ضمان إلى تركي عملي والتفرغ لرعاية أطفال هذا الحب. ثم توالت التنازلات.. لأجدني وجهًا لوجه أمام عبارة قالها

حين ذكرته بتضحياتي.. "أنت من رمت نفسها علي.. ويمكنك أن تغادري متى شئت..".

هل أعود بك أكثر فأكثر إلى بيت أهلي، إلى مورثات الضعف.. وتربية الخجل.. وأخلاق الوهم.. وأسطورة الحب، أم أكتفي بالقول هو لم يكن قويًا.. أنا التي كنت الضعيفة.

(10)

أعزّ الناس

لم يعد لديّ ما يطمع به لصّ متسلّل تحت جنح الليل إلى وكري، فما هذه الأصوات؟!

شبابي ولّى ولم يبق مني الا ذؤابة شمعة تنتظر نفخة لتنطفئ.

أنا التي كنت بجمالي حديث المدينة بأثرها والكل يحلم أن يلامس حتى طرف ثوب..

أتهادى بحذائي العالي فتتفلت الآهات وتفضح العيون نظرة الجوع لأميرة لا تطال.

أموالي وممتلكاتي نقلتها بلحظة ضعف لمن تعهدوا رعايتي وأقسموا على احترام كبرتي، كي لا يدوخوا في الدوائر الرسمية بمعاملة حصر الإرث.

ومن يومها انطووا في ملف كماض غابر.

كان في نيّتي أن أهبها لدار عجزة أضمن فيها خدمتي في أرذل عمري، فاستهجنوا قلة ثقتي وقالوا أمومتي ناقصة فضعفت وبصمت.

حتى ذاكرتي فارغة، من ذا يطمع لاستلاب ذاكرة مثقوبة لا تذكر حتى موعد دوائها، ليحيلها فيلماً سينمائياً أو كتاباً رائجاً.

الصوت يقترب ويقترب بخطاه الوئيدة وشبح أسود يكتم على نفسي.

عرفته.. ملك الموت.. جاء يستعيد أمانته، فدفعته عني بقوة وصرخت.

لأجدني وسط وجوه أليفة تحضنني دامعة العيون هامسة:

هوّني عليك يا أماه.. وساعدينا على هذا الزهايمر اللعين والخيالات المريضة، وتذكري أنك كنت وستبقين في قلوبنا الأميرة.. يا أعزّ الناس.

(11)

شجرة الأمنيات

للربيع العشرين على التوالي، آتيك يا شجرة الأمنيات لأعقد بكل إيمان شريطة توقي لطفل، على غصن من غصونك الذي بدأ ماء الحياة يدبّ فيه، ليتفتّق عن براعم ورق غضة فتية.

اخترت هذا العام شريطة بيضاء قصصتها من فستان عرسي كأعزّ ممتلكاتي وأكثرها حميمية ورمزية عندي.

لأني بهذا الفستان قبل ربع قرن أعلنت للدنيا عن رغبتي في أن أكون أماً، وما ظننت لحظة أن السماء قد تهب كلبة جراءً صغيرة وتحرمني.

السنين الخمس الأولى مرّت في مراوحة مرّة بين أملي وإجماع الأطباء أن لي رحم طفلة ضامر محال أن يحمل.. وعينيّ زوجي اللتين صارت نظرتهما أكثر جرأة في إعرابها عن رغبة تحولت لقرار ذات ليلة .. سأتزوج يا صفية رغم حبي لك .. لا سلطان لي على دمي يريد وريثاً يحمل جيناته واسم عائلتي.. ولك أن تبقي عزيزة مكرّمة أو ترحلي.

بعدها .. أتيتك يا شجرتي الحبيبة أتمسّح بجذعك فما رأيت في الكون أقرب منك ومن قلبي للسماء..

أتيتك بيقيني أتوسل ككل مرّة :

"يا باثق الوجود من العدم .. اجعلني معجزتك .. لأني لا أصدق أني عاقر وها زوجي تزوج لأكثر من مرّة .. لكنه ما زال يبكي كطفل على صدري حنيناً لأبوة لم تتحقق ".

أنا لا أدري ما الفرق بين ربيع هذا العام وكل نيروز مرّ قبله.

و لا أدري هل هناك مسافة تفصل صوت الابتهال عن السماء وزمن يلزم ليتحول الدعاء لحقيقة.

هل هناك لحظات تتفتح بها أبواب التلبية، من قبل سلطان مقتدر يمنح ويمنع، ثم تغلق عمراً؟

هل تُجرى دراساتٌ مطولة تستغرق ربع قرن ليأتي الرد بالإيجاب..

"لقد وصل توسلك بحقّ كل هذه الآهات التي ذرفتها وستوهبين طفلك المنتظر، لكنه لن يكون سويّاً كباقي الأطفال، وستحيين باقي عمرك حبيسة دموعك، تلعقين في صمت سؤالاً لا إجابة له .. لماذا أثمر صبري صباراً؟"!

(12)

دار حضانة

لا تكتبي عني يا أمُّ ، بل دعيني أتدفق على سطورك دمعاً وتوقاً ولياليَ سهد.

لعلك قد بكيتِ عمراً من تعب أو قلق أو ألم أو خيبة، لكن دموعك لم يكن لها يوماً طعم الحرمان من الضنا.

"الضنا" .. يا للكلمة المعبرة جداً عن تعب وعذاب الأولاد المحبّب العذب، للأمّ والأب، فيمضيان التعب لهاثاً لأجلهم قبل مجيئهم وبعده.

مثلك أنا تزوجت وبدهية أن أنجب لا يخامرها شك أبداً.

الشهور الأولى من الزواج تمرّ بالانشغال ثم يبدأ القلق يتململ، وسؤال كلما دفناه أطلّ برأسه مضطرباً في نظرة العين وارتعاشة الأنامل ونشيج القلوب لما يستكين كلّ حبيب لحبيبه:

"ماذا لو .....؟" !

وتخرس الحروف بعدها ، فالنفس أضعف من أن تتخيل حرماناً بهذا الحجم، وقسوة من القدر بما يعادل عدم الإنجاب كأي كائن حيّ على هذه الأرض.

إلى أين تهرب عيناك بعيداً عني، وكيف لك أن تكتم صراخ الأبوة في صلبك لا يمنع هديره من الوصول لقلبي كلّ جدران الكون.

يا من قاسمتني حتى شهقة الفرح وزفرة الألم ، ألم تصغي كل ليلة كيف أموء كهرة في حضنك، وأنت أعجز عن فتح مغاليق السماء لتهبني طفلاً له لون بشرتك وعينا حلمي.

ويمضي العمر.....

لا ..لا تكتبي عني

محال أن تكوني عشت تفاصيل انتظاري وأملي وخيبتي وتمردي على رحم لا ينجب وثدي لا يرضع، وتفكيري بالبدائل كفكرة التبني، وتقليب الفكرة بين أخذ وردّ، ثم خاطر طفل الأنبوب ، و... و....

وصولاً لاحتضاني نفسي بعد احتضار طويل لقيامة وبعث.

لأقول لزوجي في ابتسامة صلح مع قهرنا المشترك والحرمان:

"سأفتح دار حضانة" .....

(13)

حكاية السيدة "لا"

استيقظت من نومها وهي تشعر بتوعّك لم تدر له سبباً

أحسّت بعمودها الفقريّ قد تخشّب تماماً من أول فقرة رقبية إلى آخر فقرة عصعصية.

ثم استيقظ زوجها وبدأت قائمة الطلبات..

حاولت أن تحني رأسها أن حاضر.. بلى.. نعم .. فلم يطاوعها .

استعانت بشفتيها ولسانها ،ولكن حسكة "لا" كانت قد تضخّمت وسدّت مخارج الحروف .

حتى يدها فشلت في الإقرار والمطاوعة .

استمر الحال لأيام، فما كان من الزوج إلا أن فتح الباب وألقاها منه كلقمة ذات غصّة أو ممجوجة.

تنفّست الصعداء ومشت تقلّب صفحات حياتها بعمودها المتخشّب لا تلتفت يمنة أو يسرة.

منذ أيام وصلني آخر أخبارها، أنها أجرت عملية استئصال للعمود الفقريّ، ورُكّب لها بدلاً عنه نابض مرن بعد أول دعسة قدم على رقبتها من قبل جهة مجهولة .

(14)

توءَمي القصيدة

تكرّر أمّي على مسمعي أن القصيدة انزلقت قبلي من رحمها، دون الاستعانة بالداية أم زكي، ثم تعسّرت الولادة فاضطروا لاستدعائها لأجيء إلى الدنيا بالضيق والعسر، فكان لكل منا حبل سريّ ومشيمة كأيّ توءَمين غير حقيقيين.

ثم شكلت هذه الدقائق بيننا على مسار عمرينا فارقاً في الاستيعاب، وبقيت القصيدة أكبر مني بكلّ شيء، خاصة أنها كانت قد تغذت على حسابي مما تسبّب بهشاشة عظمي.

كبرنا معاً والكل يتغزل بالقصيدة ولا أنكر أنها تستحقّ، فقد كانت رقيقة كنسمة طرية كعشب منعشة كفاكهة موسمية.. كأنها أخذت من أبينا الذي في السماء كلّ شيء جميل.

أما أنا فكنت أشبه أمنا التي في الأرض بتقلّبات مزاجي وتنافر طباعي، كلّ ذلك جعلها محطّ إعجاب الجميع وتغزلهم بمناسبة وغير مناسبة، بينما عشت كنكرة أجهد باستعراض عضلاتي وقدراتي دون جدوى.

كنت أبكي فلا يلتفتون إلي، وكانت تتاغي فيرهفون السمع لها كأنهم في صلاة.

تستنكرون علي غيرتي من توءَمي، ولا تستنكرون طريقة تعاملهم مع ضآلتي.

ثم بعد ذلك تنعتونني بالمجرمة، لأنني في نوبة حنق وغيرة حبستها وأطلقت وحوشي تنهشها.

أنا المسكينة الجاهلة التي لم تعرف يوماً أن القصيدة روح وأن الروح لا تموت.

(15)

هبوب الروح

أخيراً رأت روايتي النور، وكنت قد استودعت مسودّات ورقها درج مكتبي لسنين طويلة.

كنت أخرجها من حين لآخر من عتمتها وأجري تعديلات على فصولها وشخوصها وفقاً لتغيرات المرحلة وانقلاباتي الفكرية والنفسية، ثم أعيدها للدرج دون أن أفكر لحظة بالترويج لها عبر النشر، فالرواية كانت أنا بكل تفاصيلها، ولا أجد ميلاً لأن أكون يوماً على مشرحة النقد أو ملهاة الاستهتار أو حتى مسرح التصفيق.

ثم .. لا أدري كيف طاوعت أخيراً صديقي وقلت له افعل بها ما تشاء، ما دمت لم تزل مؤمناً بي وبدور الأدب في التغيير، فلا أظنني سأضيف عليها بعد اليوم حرفاً.

وضعتها في ظرف بعد أن كتبت بقلم رصاص على المغلف .. "هبوب الريح" أمسك صديقي ممحاة وبدّل كلمة الريح بالروح وتبادلنا النظر للحظة، هو بعينيه المشرقتين وأنا بغياب عيني.

لم يخبرني صديقي كم دار نشر رفضتها إلا بعد أن نشرها على حسابه الخاص في دولة عربية شقيقة، فزادني الأمر بؤساً وإفلاساً معنوياً.

كرّر صديقي محبته التي لم ألق حتى اللحظة مثلها .. "لا تشغلي بالك بأمور التوزيع.. سأتكفل أنا بإيداع النسخ في مكتبات البلد وسأطلب من أصدقائي الكتابة عنها، لضمان الاهتمام بهذه التحفة الإنسانية الرائعة".

المحبة حجاب بقدر ما هي بصيرة..

ومحبة صديقي وإيمانه بي حجبا عنه واقع الحال وما آل إليه الأدب.

كان لا يزال يحيا في ستينات القرن المنصرم ورواياته العالمية الخالدة.

كأنه لم ير .. أن الأدب صار ترفاً ومحسوبيات ونفساً قصيراً..

ولا رأى كيف الحضارة ارتفعت على حساب الكلمة والإحساس بها، وأنها كغول التهمت القيمة المعنوية لصالح القيمة المادية.

تأملت من جديد غلاف الرواية وأعجبت جداً بالفنان الذي أبدع بتجسيد فكرة العنوان "هبوب الروح"، والروح يد سماوية علوية، تمسك خيطان مسرح العرائس..

تزجي السحاب ثم تمطر وتغرق .. تمنح وتمنع .. تكسر وتجبر.. تقطف وتخطف.

تسلّيت بكتابة إهداءات على الصفحة الأولى لعدد من النسخ لبعض معارفي وأقاربي وتفننت بإعطاء خصوصية في كل إهداء بما يليق بمكانة المهدى إليه عندي وانتظرت.

طال انتظاري طويلاً .. طويلاً جداً .. حتى بعد رحيل صديقي وتوأم روحي..

وما خطر ببالي أبداً أن حياتي وأنا في أرذل العمر .. تصبح مسلسلاً تلفزيونياً بعنوان آخر لكاتب آخر، وتحصد أكبر نسبة مشاهدة في ماراثون التنافس.

(16)

كلمات متقاطعة

كان مغرماً بالكلمات المتقاطعة، وكانت تميل للكلمة الضائعة، منذ كانا مدرّسين في قرية نائية قبل عشرين عاماً .

وقد بقيا وفيين بعد الزواج لهذه العادة التي ظلت استراحة المحارب لهما .

الحقيقة أنه كان بأعماقه يستخفّ بقدراتها الثقافية التي تعجزها عن حل الشبكة فتؤثر التسلّي بوصل الكلمات، رغم أنه ما من مرّة إلا واستعان بها لغوياً لإيجاد كلمة مرادفة أو مضادّة أو حتى لاستذكار حروف الجر، باعتبارها مدرسة للأدب العربيّ.

وهي كانت ترى استخفافه وتتصرف بلا مبالاة واستخفاف أكبر، وتكيد له كيداً.

اتفقا يوماً بناء على رغبتها، على تبادل الأدوار ووضعا زمناً موقوتاً للحلّ.

حدّث نفسه.. ههه الكلمة الضائعة.. لن أحتاج لأكثر من دقائق لإيجادها .

لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة.

تداخلت الحروف ببعضها وبدت اللعبة الصغيرة مساحة شاسعة لا تنتهي، وبدأ يتعرّق ويشتم مواصلاً استخفافه بهكذا لعبة نسائية سخيفة .

بينما راحت تحلّ الكلمات المتقاطعة بصبر ورويّة مستذكرة كل ما كانت تقرؤه قبل الزواج وأعباء الحمل والولادة والتربية .

يحكى أن الرِهاب بعدها ، أضاف مصطلحاً جديداً في لاوعي صاحبنا ، اسمه الرهاب من النساء وكلماتهن الضائعة.

(17)

الوعد

- لم أعدْكِ بشيءٍ

- بل فعلتَ..

منذ تهجّيتُ أبجدية الحبّ، إلى لحظة حفظتُ معلّقاته عن ظهر قلب، وها رسائلكَ عليك تشهد .

تُخرج من ظلمة حقيبتها أوراقاً صفراء تهلهلت من كثرة ما رُتّلت كمصحف مقدّس .

يبحثان معاً عن كلمة الوعد أو إحدى اشتقاقاتها اللغوية.. عن كلمة مرادفة.. عن استعارة أو صورة بيانيّة أو كناية تشي بسنين الانتظار .. فلا يجدان .

كأن قوى شريرة تآمرت ضدّها ، ونسلت وعوده من صكوك اعترافاته وتركتها تحفة أدبيّة .. كلّ يرى بها ما يشتهي .

-لم أعدك بشيء..

يقولها من جديد وهو يضمّها منعكساً بمرآة عينيها ..

" لأنك كنت الوعد".

(18)

المرآة

كيف كان لي أن أحزر أنها ليست حقيبتي لولا أن فتحتها بعد وصولي الفندق لأرتدي منامتي وأستريح لساعات قبل موعدي مع دار النشر .

لا لست شخصية مستهترة متسرعة لأرتكب حماقة فقدان حلمي المستودع فيها ، لكن الحقيبة البديلة كانت بنفس الحجم ونفس اللون الذي أحرص أن أشتري به حقائب السفر تفاؤلاً من جهة وليسهل عليّ تمييزها في زحمة الحقائب في المطار ، وحتى نفس الشركة المصنّعة.

فار الدم في عروقي وأحسست قلبي يكاد يخلع ضلوعي في ذروة غضبه ، ليس فقط لحزني على روايتي ، بل لإحساسي أنني ضحيّة مقلب سخيف وكذبة سمجة.

فقد كانت الحقيبة البديلة تحتوي على روايات حازت على جوائز عالمية لم يتسنَّ لي قراءتها لتفرغي لكتابة روايتي منذ عدة سنوات .

عصرت ذاكرتي علّي أحصر شكوكي بأشخاص يعرفون قصة سفري والهدف منه ولكن عبثاً، خاصة أن لا أعداء لي حسب تقديري وأصدقائي في شغل شاغل عني .

إذاً لعلها صدفة غريبة أو قدر أراد أن يوصل لي رسالته بشكل شيفرة ويحرّض خيالي لقراءتها .

اتصلت بدار النشر وأجّلت موعدي لأيام علّي أهتدي للص الظريف وأستعيد كنزي المفقود.

ثم قضيت الوقت أقرأ الروايات في محاولات مستبسلة للقبض على سرّ هذا التبادل الأدبي الغريب.

لا أخفيكم سرّاً، أن منطادي مع كل رواية أنهيها كان يفرغ من هليوم الأنا قليلاً، وأحس بضآلة سردي وحبكتي وحتى فكرتي، وحمدت الله أن عرقل نشري للرواية للتروّي أكثر، طالما كان حلمي ولا يزال أن أترك بصمة مختلفة في عالم الأدب .

ثم وجدتني في نهاية المطاف مع آخر رواية، وجهاً لوجه أمام مسودّة روايتي بغلاف مختلف واسم مختلف "المرآة"، مذيّلة باسمي تحتها .

حين عدت من سفري، نظرت في عينيّ زوجتي طويلاً ثم ضممتها لصدري في اعتذار صامت، فلا هي قالت ولا أنا قلت".

(19)

تشابه أسماء

الاسم اسمي والصورة صورتي ، لكني أقسم أني ما زلت حيّة أُرزق ..

ليس بالضرورة أنني أُرزق مالاً أو جاهاً أو مجداً.. ولكن على الأقل أُرزق أنفاساً ولو أنها ملوّثة لكني أصفّيها بفلتر الإرادة الحرّة.. وما زلت حتى اللحظة أبتسم للصباح.. وأعدّ فنجان قهوتي وأنا أقرأ آخر الأخبار.

و ما كان بحسباني أن آخر الأخبار سيكون خبر نعوتي.

أفتح صفحتي على موقع التواصل الاجتماعي التي كنت قد أغلقتها قبل فترة، فتترقرق عيناي بالدمع تأثراً بقصائد الرثاء ممن أعرف وممن لم أتشرف بمعرفته .

بين يوم وليلة صار اسمي الأديبة الكبيرة.. المبدعة.. درّة الشعر.. المغفور لها.. المأسوف على شبابها ..

أتصل بحالي لأستطلع الخبر وأتأكد أن حالي لم يرتكب حماقة الانتحار كما جاء في الخبر، وكما كان يهدد كلما ضاق به الحال.

يضحك حالي لاتصالي ويغمز لي من خلال غلالة شفيفة بيننا أن "عمر الشقي بقي" وأنه لن يفعلها ويمنح الآخرين متعة البكاء على أطلالي .

حسناً إذاً.. وضّح الأمر لي فقد ضاق صدري .

- لا شيء.. مجرد تشابه أسماء

- وصورتي؟!

- نتيجة تشابه الأسماء

فحين نشر أحدهم الخبر عن انتحار صبية لها ذات اسمك في قرية عربية نائية، سرى الخبر كنار في الهشيم مرفقاً بصورة قديمة لك، والمسكينة الصعيدية خانها الحظ حتى في الموت .

أغلقت الخط بيني وبين حالي وعدت لفنجان قهوتي وأنا أشتهي أن يكون لكل منا رقم بدل الاسم يصون أناه، فلا يقال له في مواقف حرجة.. آسفون.. مجرد تشابه أسماء.

(20)

موديل

هو كانَ نحّاتاً

و أنا الشقيّةُ التي قادها العشقُ معصوبةَ العينينِ لتتصنّمَ حبيسةَ الأنفاسِ في عالمِهِ الحجريّ

أتساءل : هل كان يرى حقاً اشتعالي غيرةً وهو يرمقني بحبّ من حين لآخر بعينين أثقلهما بياضُ الغبار؟!

هل رأى كم أغارُ من كلّ حجرٍ أو صخرةٍ انتقاها بعناية وبحسّ الخلق فيه وحدس النبوءة فيما ستكون عليه بعد نفخ الروح فيها؟!

هل أحسّ بشعاعاتِ عيني على أناملهِ التي اخشوشنتْ وكيف كنت أعانقها في سرّي وأقدّسها كآيةٍ من نور؟!

ثمّ.....

يوم قال لي "كوني صخرةً بينَ يديّ أنحتك كيفما أشاء، وسأضمنُ لك الخلود".

لم أستطع إلا أن أكونَ "أنا".

إزميله في محاولةِ نحتي أعلن لأول مرة عجزَه وقلبي الذي انساب بعيداً كجدول ماء خسرَه والخلودَ معاً.

وبقي الماءُ غيرةً يستعر.

(21)

حيّة.. ما فاح عطر

أعتذر أيها الطبيب، محال أن أستلم هذه الجثّة على أنّها زوجتي، ولو شهد كل معارفنا بذلك، فهم لا يعرفونها كما أعرفها .

زوجتي قد تنام على سرير.. على أريكة.. وحتى على الأرض.. لكنها أبداً لا تنام في برّاد منتظرة إتمام أوراق التسليم .

رائحتها محض طيب يسبقها إليّ لحظة تطأ قدمها أول درجة صعوداً للطابق الثالث، فأعاجلها بفتح الباب لأعفيها من البحث عن المفتاح في فوضى حقيبتها، فكيف تحاول إقناعي أن الطيب قد ينقلب إنتاناً.

عيناها لم تغمضا يوماً إلا بعد الاطمئنان بأنّا خلدنا للنوم ولا أحد منا سيطلب كأس ماء بآخر لحظة أو غطاء، فكيف تنام الآن غير عابئة بعواء حاجاتنا التي تزداد .

ثم أنّ زوجتي قد تموت بشردقة وهي تضحك، أو بسكتة قلبية من تعب، أما أن يخترق طيش رصاصة صدراً اعتاد التسليم فذاك أمر لا يُعقل ولا يُقبل .

أعتذر.. أعتذر

انا ذاهب لأزورها في حديقتها

ورودها أصدق من هذا الجسد الجاحد... الذي لا أدري هل أنكره أم ينكرني .

ادفنوه حيث تشاؤون

أما حبيبتي فعزيزة عن أن يحتويها قبر ..

تزورني في الحلم منذ جاء الخبر كلّ يوم وتوصيني خيراً بالصغار..

حبيبتي حيّة ما فاح عطر.

(22)

حطام الظلال

أمضيتُ ربعَ قرنٍ في رسمِ لوحتي الخالدةِ لامرأةٍ عاريةٍ، يسترُ بعضُ جسمها بعضَه الآخر، فتتركُ لخيالِ الرائي إكمالَ ما توارى .

امرأةٌ تسدلُ أهدابها حياءً، فيثرثرُ اكتنازُ الثغرِ بقصصٍ وحكايا انعتقت من فنون الإغراءِ الرخيصِ .

اعتكفتُ في معبدِ مرسمي مع شياطينِ الوحي تتقافزُ حولي وتتسابقُ لنيلِ الرضى، وكان قلمُ الفحمِ يأبى أن يضيفُ خطّاً أندمُ عليه يوماً .

تتساءلون عن اسمِ المرأةِ التي رضيتْ أن تكون موديلاً لربعِ قرن، فأبتسم في تواضعِ المغرور.. أنا لم أستخدمْ موديلاً أبداً .

كنت أحشدُ في ذاكرتي كلّ النسوة اللواتي عبرن حياتي وتركنَ بصمةً هنا أو هناك،بينما تتساقطُ تفاصيلُ أجسادِ اللواتي نادتهم حاجتي لأنثى فتلاشين بعد إطفاءِ رغبتي كالبخار .

هكذا خرجت اللوحةُ اكتظاظَ الحبّ في لحظات التجلّي تروي قصةَ حياتي، ولو مرّتْ كلّ امرأةٍ أحببتها أمامي لرأت نفسها مكثّفة كتقاطرِ الضوءِ في بقعةٍ منها .

ضننتُ على عمري المستودعِ فيها من البيعِ أو حتى إهدائها وكنت لا أغيّر مكان تعليقها إلا كلما غيرتُ مسكني، لتكون محطّ الأنظار من كل الجهات، إلا العيون التي يرعبها العريُ، فتختلس النظرَ من رأسٍ منكّس في ورعٍ مصطنع .

إلى أن ادلهمتْ ليلةُ.....

داهمَ الحُماةُ بيتي، وكنتُ يومها أزور قريتي، ولولا ذاك لحطّموني كما حطّموا عمري وليتهم فعلوا .

نسائي قطعٌ متناثرةٌ على الأرضِ، دماؤهن بسوادِ الليل، يبكين أنهن عرفنني، إذ ليس للفنّان ربّ يحميه.

تمّت.. ولا نهاية للظلال

إكسير السعادة

(1)

استمرّت لعبة المساومة بيني وبينه بعض الوقت حتى توصّلنا أخيراً إلى مبلغ يرضي الطرفين.

كنت أراوغه بحسن نيّة أنّي أقدّم له المجد على طبق بجعله بطلاً لروايتي وأنّي أنقله من حاويات الإهمال إلى سدّة الشهرة، بينما كان هو يفكر من أين يقترض ثمن شهرته ليدفع لي. وحين أبديت له قبولي بتقسيط المبلغ وأن تكون آخر دفعة بعد طباعة الرواية، ابتهجت أساريره وانفردت تجعّدات جبينه، وظلّ يكرّر شكره بطريقة كسرت قلبي حتى لحظة مغادرتنا طاولة الاتفاق.

لم يكن "سعيد" سعيداً يوماً، إلا إذا اعتبرنا أن خطّة حياته التي رسمتها له في الرواية هي الحقيقة وأن واقعه البائس مجرد خيال.

فقد ولد يتيماً لأبٍ توفي قبل ولادته بساعات عن طريق خطأ طبّي في مشفى حكوميّ، حين أعطي دماً مخالفاً لزمرته بعد أن تصفّى دمه على إسفلت مدينة سياراتها كأقدار أفرادها رصاصات طائشة.

ولعلّ الخبر المباغت الذي صعق أمّه قد عجّل بولادتها فكان أقوى من أيّ محرّض تحتاجه لدفع المولود نحو عالمه المجهول.

فقد وجدت المسكينة نفسها في زوبعة تعصف بها، فلا تدري أتحزن على زوجها أم على مصيرها الغائم من غير عائل.

ولأنّ زوجها كان اسمه سعيد كاسم جدّه، فقد تحتّم أن تسمّي وليدها بنفس الاسم، تتنازعها آلام أشد من آلام الولادة بكثير، وصلاة انكسار تتلوها بدموعها التي لم تنشف بعدها أبداً، أن يهبها الله القوّة والحظّ لجعله اسم على مسمّى.

(2)

الجرعة الأولى من إكسير السعادة ارتشفها على مهله حين رحت أقرأ عليه الفصل الأول من الرواية على مقعد في الحديقة كمتسكّعَين، روائيّ مغمور يكتب أولى رواياته وأجير يعيش يومياته يوماً بيوم بما يجمع من أشياء بلاستيكية من حاويات القمامة، لتنتهي بمصنع يعيد تدويرها وتوزيعها بحلّة جديدة وألوان تطغى على البلاستيك المكرّر ورائحة النفايات.

لم أبدأ بقراءة فصلي إلا بعد أن دفع لي المبلغ المتّفق عليه الذي جمعه خلال فترة غيابي عنه للكتابة.. هذا المبلغ الذي سيكفيني لسدّ رمقي بوجبة شعبية من الفول السوداني أو الفلافل لأيام.

و كنت أتعمّد النظر لعينيه من حين لآخر لأرى تأثير الإكسير فيه فأبتهج وأنا أراهما تشّعان بالسحر الذي يحدثه المال في كيان مُعدم، ويحدثه الخيال عند روائي مغمور.

"بدأ سعيد جولته الصباحية المعتادة انطلاقاً من حيّه الشعبيّ الذي بقي على حاله منذ فتح عينيه على هذه الدنيا كأن تميمة تحفظه وسكّانه البسطاء الفقراء، من الإصلاح والتطوير.

سمّى باسم الله واستهلّ صباحه المبكّر جداً بـ "يا فتّاح يا عليم.. يا رزّاق يا كريم".

كلمات ظل يرددها سنين طويلة ولم يخطر بباله أن اليوم بالذات تصل للسماء ويفتح الله الباب لعبده المسكين قائلاً له: قد أجيب سؤلك واليوم يوم ستظلّ ذكراه خالدة فيك لأنه سيغير مصيرك".

تسارعت دقّات قلب سعيد واتّسعت عيناه لدرجة أنه لم يطق صبراً فسألني: ماذا حدث وكيف الفتّاح العليم الرزّاق الكريم فرّجها علي، أقصد على بطل روايتك المُعتّر.

"ترحّم سعيد على أبيه الشهيد النازف على إسفلت المدينة الذي دهسه الطيش وأجهز عليه في المشفى الإهمال، ولم يعاتبه لأنه ورّطه بدنيا اختبر قبله انها ليست للفقير، ثمّ ترّحم على أمّه التي ربّته بدموع عينيها ولم تترك صنعة إلا جرّبتها لتعيل طفلها وتوصله لسنّ تدفع به للحياة بعد عدة سنوات قضاها في المدرسة كانت كافية ليقرأ ويكتب.

ثم ابتدأ جولته المعتادة مع عربته الصغيرة لحاويات المدينة ابتداء من حيّه وصولاً للأحياء ما تحت عتبة الفقر.. الفقيرة.. الغنية.. ما فوق الغنية.. كأن الغنى في تدرجاته أشعة شمس، ولو كانت الحاويات خبرة لقلنا انه اختبر فلسفة القمامة وتندّر مع أصحابه بقصصها الغريبة".

شوقتني لأعرف مصيري.. يقاطعني سعيد، ثم يستدرك: أقصد مصير البطل فأقول بحزم مصطنع: في مجلس الأدباء تعلّم الصمت.. وحين تكون أنت بطله، اكتفِ بنشوة أنهم خلّدوك.

(3)

تقلّبت في فراشي طويلاً ليلة أمسٍ وأنا أفكّر بسعيد، بقصّة حياته البائسة، بفرحه حين عرضت عليه أن أجعله مهمّاً ولو على الورق.

فكّرت كيف أنه أشرف منّي، لأنه يدفع لي من قوت يومه ثمن حلم.. مجرد حلم، في أن يصبح مشهوراً، بينما أنا أبيعه الكذب كي لا أموت من الجوع.

استعدت حديثه الجادّ عن "مقامات النفايات" .. وكنت قد انهيت للتوّ الفصل الأخير من كتاب "مقامات العشق" قال لي بعين الخبير:

"الزبالة أنواع، ولتعرف مصدرها تأمّلها قليلاً، ومع الوقت لن تحتاج حتى للتأمل وستفرزها فوراً وتحرز سلفاً أن فرصة فوزك بشيء مهمّ من هذا الكيس أو ذاك.

الأحياء الفقيرة لا تغري بالعمل، ولن تظفر منها حتى بعلبة بلاستيك لأنهم سيعاودون استخدامها لأغراض أخرى، أو يرمونها في السقيفة في اضطراد تراكم لأجل غير مسمّى.

نفايات الفقراء في أكياس صغيرة جلبوا بها صباحاً الخضراوات وغير مربوطة غالباً فتعبث بها القطط الشاردة دون

جدوى، فهم يستفيدون حتى من العظام إذا صادف ودخل بيتهم اللحم.

في أحياء الفقراء تتخمّر الروائح وتنتشر الأوبئة لعدم وجود الحاويات، ولو حدث ووجدت لوجدتها صباحاً مقلوبة أو مسروقة. حاويات الفقر كأعمار أهله لزوم ما لا يلزم.

ثم تتدرّج المقامات بين المتوسط والشاهق..

وصولاً لأهل العزّ الذين يضعون قمامتهم بأكياس سوداء كبيرة مربوطة، إلا إذا كان العزّ قد هبط عليهم من غامض علمه ولم يفلح بتعليمهم آداب السلوك.

إن كنت جائعاً فاحتمال كبير أن تجد ما يسدّ رمقك دون أن تزعج القطط السمينة البليدة التي نادراً ما تراها.

و لأزيدك علماً أقول.. يتنافس الزبّالون على دورهم بحيّ غنيّ، ومثلي يجد دوماً حصّة ترضيه من البلاستيك وأحياناً أشياء أخرى يرميها الترف دون حتى التفكير بأنها تشكّل قيمة لكلب جائع مثلي".

تقلّبت طويلاً وأنا أفكر ببطلي.. بالحياة.. بما ورّطت نفسي فيه وما يمكن أن تحدثه نفخة الحلم بسعيد، أتراها تحييه أم تقضي عليه ؟!

وطلع الصباح وفضحت الشمس بؤس حالي، في غرفة صغيرة وأثاث قديم، وأوراق تلحّ عليّ لإكمال ما بدأت.

(4)

نشأت وسعيد في عشوائيات المدينة، وكان بيننا وحدة حال من حيث تدنّي مستوى المعيشة بفارق أنه نشأ يتيم الأب وكنت يتيم الأم بكنف زوجة أب لا تكفّ عن التذمّر والشكوى من طباع أبي السيئة والفقر وتربية أولاد ليسوا من رحمها. ولأني صغير أخوتي فقد كنت متعلّقاً بها، أشفق عليها وأضمها فتهدأ وتستكين وتوشوشني بأني سندها لكبرتها.

أما سعيد فقد بقي معي بنفس الصفّ خلال المرحلة الابتدائية، قبل أن يبتلعه طين الحاجة ويطفئ شغفه للعلم وطفولة عينيه.

ولا زلت أذكر كيف كان يصغي مذهولاً لمواضيع التعبير التي أبرع بكتابتها ويبتسم في سعادة لتشجيع معلّمي لي وكأنه هو من كتب.

ثم تابعت تعليمي رغم ضيق ذات اليد، بينما راح سعيد يسعى في مناكبها ليريح والدته من عبء تعليمه ومن آلة الخياطة التي استهلكت نظرها وأعصابها.

وكان كلّما التقينا يرجوني أن أقرأ عليه ما فاته متابعته من مواضيعي، وكثيراً ما كنّا نجلس سرّاً في علّية بيتنا أو على سطح بيتهم لنقرأ ألغاز "المغامرون الخمسة"، أو مجلات للأطفال كنت

أشتريها من مصروفي وأخفيها خوفاً من توبيخ أبي الذي كان غالباً ماله مبرّر مقنع.

كبرنا معاً وبقيت علاقتنا غريبة لا سمة تصفها وكأنها وشائج لا مرئية نسجتها الكلمة، الكلمة وحدها تقدّس سرّها.

(5)

لو فكّرت بالعواقب قليلاً ما كنت تركت البيت إثر نوبة غضب والدي وهياجه لأنه ضبطني متلبّساً أقرأ كتاباً إباحياً كما وصفه، كحال كلّ أقراني في مرحلة المراهقة أو البلوغ.

أردت أن أقول له أني لم أخطئ ولو أردت الخطأ لمارسته في الزوايا المعتمة وبأرخص ثمن، لكنه راح ينهال عليّ ضرباً وشتماً بينما تتضرع إليه خالتي أن يتركني، فكان يلبسها كلّ أسباب فسادي وانحرافي.

وهكذا فتحت الباب وصفعته ورائي بعنفوان المراهق وحلفت ألا أعود أبداً بينما صوته يزمجر برأسي: " دعيه يذهب.. لا مكان في بيتي لقلّة الأدب والشذوذ".

تسكّعت في شوارع المدينة طويلاً وحين حلّ الليل عرفت أني ورّطت نفسي بانفعالي بما ليس وقته، فقد كنت بأمسّ الحاجة للمال، وكنت من العقل حقّاً بحيث فكّرت أني لا أريد ان تبلعني المدينة كما بلعت سعيد.

سعيد الذي نمت عنده تلك الليلة وكان من اللطف بحيث لم يسألني كلمة واحدة حول ما جرى، وقضينا الليل نقرأ كلّ في مجلة، كنت أهبها له من حين إلى آخر. حتى غلبنا النعاس ونمنا كلّ على أريكة أكل الزمان عليها وشرب.

وحين أطلّ الصباح فتح الباب بلطفه المعتاد وخرج وعربته تاركاً إياي يراودني كابوس العودة إلى البيت الذي لا مفرّ منه.

و كلّي ثقة أن عيني أبي لم تعرفا طعم النوم ليلتها ينهشه ندم لن يدوم طويلاً.

(6)

أحضر سعيد فطائر من الجبن والزعتر ومازحني قائلاً : ليس لهذه علاقة بالمبلغ المتّفق عليه بعد إنهاء كلّ فصل من الرواية.

ثم مضى وعاد بكأسين من الشاي من بائع جوّال قريب، وجلسنا كعادتنا على مقعدنا الأثير في حديقة نعرفها وتتكرنا، فلسنا سوى تافهين على هامش الحياة تضحكهما نكتة ويبكيهما موقف، ولا يشكّلان فارقاً مع أحد إن حضرا أو غابا، اللهم إذا ما استثنينا العين التي يراني بها سعيد عظيماً والقلب الذي أراه به ككائن مظلوم لا يملك إلا رضاه وحلماً بات يراوده بعدالة السماء.

سألته أين وصلنا المرّة الماضية، فضحك وأجاب أنت لم تقرأ بعد عليّ إلا الوعد الذي جعلني من لحظتها متفائلاً كأني أنتظر حدثاً جللاً يقلب حياتي.

"مشى سعيد تسبقه عربته، يدندن لحناً مألوفاً على صرير عجلات عربته التي يدفعها خفيفة في الذهاب وتكون أثقل في الإياب لو حالفه الحظّ.

تنقّل بين حاويات الأكابر ينقّب عن رزقه من البلاستيكيات وفي ذهنه أن يقتني عربة أكبر تتسع لما تجود به الحاويات من كراسٍ أو طاولات مكسورة.

وفيما هو منهمك في عمله بينما أعين الخلق لم تزل غارقة في عسل النوم والمدينة يلفّها الهدوء، رأى لفافة بيضاء كأنها الثلج تعلو الحاوية، فاعتراه زلزال من أخمص قدميه حتى شعر رأسه، ثم تناولها بأيد مرتجفة وهو يبسمل ويحوقل، وعبثاً حاول أن يمنع دموعه من الانهمار، ثم انهار على الرصيف ويداهُ تحضنانِ اللفافة في ذهول كبير".

(7)

تسألني خالتي من حين إلى آخر، ما الذي غيّر والدي تجاهي، وهل يعقل أن نومي خارج البيت لليلة واحدة جعله يخشى أن يفقدني.

فأرفع كتفي وأقلب شفتي أن اللّه أعلم بينما أحدّث نفسي.. الجهل يا خالتي نعمة.. فلن يسرّك أبداً أن تعرفي أن هذا الفحل عليك وعلينا له عين فارغة ونفس دنيئة. . وخلف طاولة الدكّان له يد تتحرّش بأجساد غضّة تناديه يا جدّي تأتي لتبتاع حلوى أو ما تحتاجه أمهاتهن من لوازم البيت.

لن يسرّك أن أخبرك أنني منذ رأيته والطفلة مذعورة لا تدري ما تعنيه حركات هذا العجوز تهرول خارجة.. انقلب كيانه وتمنّى الأرض أن تنشقّ وتبلعه، ومن يومها وهو يتمنى ألا يجمعه وإياي مجلس واحد، يتجاهل أي تصرف يبدر مني ويترك لي مصروفي مع خالتي بينما يصلني منه شعور بالنفور إن لم نقل الكراهية.

سرّك يا أبي لن أبوح به يوماً.. إلا للورق.

(8)

كنا لم نزل واقفين عند قبرها بعد أن غادر المشيّعون تباعاً، حين نظر إلي مكسور الخاطر والروح وقال والدموع تغلبه:

"هل كنت تقصد باللفافة البيضاء كفن أمّي؟!

وأيّ وعد هذا .. أن أعود للبيت فأجدها ترقد رقادها الأبديّ ومسحة الطيبة لم تزل ترخي سدولها على وجهها الأجمل؟! إن كانت البطولة قاسية القلب هكذا فتبّاً لها ولك".

ثمّ مرّغ وجهه في تربتها وناجاها طويلاً كطفل وجد نفسه وحيداً في غابة من الذئاب.

والحقيقة أنني رغم تعاليّ المبطّن والغرور الذي يسم المتعلّم قبالة الجاهل، بحيث لم أناديه مرّة بصديقي واكتفيت باسمه المجرّد من أيّ صفة.. كأنني وهذه الدنيا الدنيئة متفقان على تعريته.

أقول رغم ذلك، وجدتني أضمّه وأبكي بحرقة فراق أمي وأمه معاً، واكتشفت فجأة أني أحبّه أكثر مما أحبّ نفسي وأن اتفاقنا باطل من أساسه، فقد كان كل غرضي أن لا انتظر لقمتي من أب لم يباركني مرّة في حياته. وأن أهب هذا الطيب ولو جرعات من إكسير السعادة عبر الكلمات، وكان بإمكاني أن أبحث

لقصتي عن بطل آخر أبتزّه وأصعد على أكتافه سلالم الشهرة. بتّ تلك الليلة معه وطيف أمه يملأ المكان وصوتها يتردد بين المطبخ والغرفة تنادي عليه أو تتوسل لأجله.

وقبل أن نختلس غفوة بعد يوم حزين، همست له: صديقي سعيد.. لن أكمل الرواية.

فانتبه من غفوته، وأبى علي إلا إكمالها.. لأنه بشوق كبير لمعرفة ما حوته اللفافة.

(9)

"أفاق سعيد من الغيبوبة التي أحدثتها اللفافة وما حوت واستعاد وعيه وتوازنه، لكنه ظلّ غير مصدّق أن يقوى أمّ أو أب على التخلص من وليد، وعجز عن مجرّد التفكير بأن توضع هذه الملاك في حاوية بدل وضعها مثلاً على باب مسجد.

و بدون أي حسابات منطقية ضمّ الطفلة لصدره وعاد أدراجه مسرعاً للبيت قبل استيقاظ أهل الحيّ، وراح يدفع العربة الخالية بيسراه وهو بين المكذّب والمصدّق لما حصل معه. وحين دخل البيت ووضع الطفلة على السرير فتحت عينيها السوداوين وبدت له أنها تبتسم رغم أن عمرها لا يتجاوز الأيام و شعر أنه اختبر الأبوة منذ زمان بعيد وأنه أب لهذه الوليدة أكثر بكثير ممن رماها أو دفع بأمها لرميها لستر العار.

ووجد نفسه يناغيها قائلاً:

"يا شمس.. يا شمس عمري.. يا روح أمّي.. شمّوسة.

أي إله أرسلك إلي بعد تولّي الفرح عن حياتي برحيل الغالية، و هل من توّج الحاوية بك فقير ارتجى أن يمّر بك غنيّ ويربّيك.

أم غنيّ كنت بالنسبة له ثمرة خطيئة وفكّر أن يتخلّص منك كما يتخلّص من فضلات طعامه.

وراحت دموعه تتهمر بغزارة لتعلّقه بهذه الطفلة من جهة وعجزه عن اتخاذ قرار بشأنها، وهو الفقير المعدم من جهة أخرى".

ينظر سعيد إلي وأنا أكمل له حكاية اللفافة والشمس التي أشرقت فيها، فيما نحن مستلقيان على سرير أمه الراحلة، ويضمّني بحنان وفرح لدرجة أن ينقل لي هذا الشعور الغامر بالسعادة، وكأني أشهد حياة لست من كتبها.

يسألني سعيد بصفاء عينيه:

قل لي يا صديقي.. هل إكسير السعادة الكلمة التي تحلّق بي، أم الشمس التي أضاءت عالمي، أم المال الذي يشيح بوجهه عني وعنك؟!

أحار ماذا أجيبه، وألوذ بالصمت.. لولا أن يستحلفني أن أكمل ما بدأت، ولا أتركه عالقاً بأثير الخيال الجميل دون أن أصل به لأقاصيه.

(10)

كنت على أبواب التخرّج، وكان عليّ أن أبذل جهداً مضاعفاً في الدراسة والتفرّغ لمشروع التخرّج من كلية الصحافة والإعلام كما حلمت منذ طفولتي.

وقد اخترت لمشروع تخرجي أن يكون حول "دورالكلمة في التربية والتعليم" وشجعني الدكتور المشرف على رسالتي ودلّني على مراجع معتبرة يمكن أن تساعدني، وكان يتابعني خطوة بخطوة.

أصرّ عليّ سعيد بعد وفاة امّه أن أبقى عنده بشكل دائم تجنّباً للطاقة السلبية التي يبثّها أبي في البيت وتحول بيني وبين التركيز.. فحبّذت الفكرة لأني أصلاً أقضي معظم وقتي في بيته البسيط.

وكانت خالتي تزورني يومياً وغالباً دون علم أبي، تحضر معها ما تيسّر من الطعام وما تستطيع توفيره لي من مال.. تنظّف لنا البيت وتغسل ملابسنا، وهي لا تكفّ عن سرد معاناتها وقلّة حظّها وطباع أبي التي تزداد سوءاً.

وكنت أواعدها مازحاً ان أشتري لها بأول راتب لي ما تحبّ وتشتهي فتغادرني وهي تتوسّل لأجلي ولأجل المسكين سعيد.

لم يعد سعيد يلحّ علي لإكمال الرواية، وكان شديد الحرص على راحتي وهدوئي، يحلم معي بحفل تخرجي الذي أصرّ أنه سيحضره ولو اقترض بذلة تليق بصديقي الإعلامي الكبير.

كنت أرى جيداً أن "شمس" الفكرة المضيئة .. قد أنارت حقاً عالمه ووهبته طاقة لم تكن موجودة عنده من قبل. اشترى عربة أكبر وزاد نشاطه وربحه وكأنه كان يعمل لأجل طفلة أحلامه "شمس".

(11)

"حزم سعيد أمره وقرر أن يتصرف بسرعة ولا يسلم نفسه للتردّد.

شمس هبة من الله ولن يكون ناكراً للنعمة بالتخلّي عنها..

سيسعى لأن يكون لها شهادة ميلاد وأب.

أما الأمّ.....

ابتلع ريقه ولم يدر ما يفعل لكنه سلّم أمره إلى الله ونهض ليحمل الملاك ويمضي بها إلى أقرب مخفر شرطة ويعرض عليهم أن يتبناها.

وفيما هو يهمّ بحملها لاحظ أن بين ثيابها منديلاً صغيراً.

ولم يخطر بباله أبداً أن يحتوي المنديل على هذا المبلغ الكبير من المال.

"يا إلهي.. يا رب العرش العظيم.. يا من رسمت قدري من قبل أن أخلق.. إني عاجز عن استيعاب ما يجري.

بابا شمس.. ما الذي تعدينني به.. وهل تدرين أنك تمنحيني سعادة الكون كلها بقدومك".

وفيما هو في مناجاته ومناغاته.. يدقّ الباب، فيفتحه بحذر ليجد صبية مسربلة بالسواد لا يبدو منها إلا عيناها من خلف الخمار. تقول له الصبية بحياء : صباح الخير ثم تحاول جاهدة من خلال دموعها أن تشرح له كيف شاهدته وهو يعود بالطفلة وكيف تبعته واهتدت لبيته.. ثم تنهار عند عتبة الباب وهي تنوح : إنها ابنتي.

(12)

"أحضر سعيد كأس ماء للصبية بعد أن جلست منكمشة على طرف الكرسيّ الذي قرّبه منها لترتاح. وحين نزعت النقاب عن وجهها تجلّى قمراً ليلة التمام والحزن زاده حسناً. وبدا سعيد كالمسلوب تماماً على كرسيه المقابل لا يدري ما يفعل أو يقول. ثم استأذنته بعض الوقت لإرضاع الطفلة ، فنامت شمس في حضن أمّها كملاك الربّ.

ثم نطقت أخيراً وقالت:

أيها الغريب الذي عرفت عنه كلّ شيء قبل أن أودِع ابنتي في طريقه، وتتبعت منبته الطيّب رغم فقره وشعرت أني أختار لابنتي خير أبّ بعد أن ذقت خسّة من اغتنى واستبدّ.

وتصيّدت اللحظة المناسبة لأنسلّ مع الفجر من الوكر الذي فررت إليه لأتمّ أشهر حملي وألد بعيداً عن كلّ عين تعرفني. ليست ابنتي هي ابنة الحرام بل ذلك الوغد الذي ظنّ أنّ من حقّه مقابل إيوائي للخدمة في قصره أن يقذف في رحمي الطاهر نطفة صلبه النجس.

وكيف لغصن مقطوع من شجرة بلا حول أو قوة أن يتمنّع أو يهدده بإخبار زوجته ما دام قادراً أن يلفّق عليّ أية تهمة. وحين بدت عليّ أعراض الحمل وأخبرته في هلع، زمجر قائلاً: يا

سافلة اذهبي للنذل الذي فعل بك ما فعل بدل أن تتجرئي على إقحامي بقذارتك.

ثم ختم حقارته:

في الغد لا أريد أن أراك في هذا البيت.

لم أنم ليلتها أفكر كيف أجهض طفلي وماذا سيحلّ بي.

ثم هداني تفكيري أن آخذ حقّي وحقّ هذا الجنين قبل مغادرتي فتسللت إلى خزنته وأخذت ما يعينني على معيشتي وتربية طفلي، ثم غادرت بعيداً إلى مكان لا تصل إليه يده الآثمة".

(13)

استطعت أن أميّز بوضوح ابتسامة سعيد تشعّ وسط حضور حفل تخرجي.

بدا لي وكأنه هو من يتسلّم عني شهادته، وقد ظلّ يصفق لي بحرارة حتى بعد أن خفت التصفيق.

وحين انفضّ الجمع وبقينا وحدنا عانقني قائلاً:

كم يليق بك منبر الإعلام يا صديقي.

أنت كلمتنا الحرّة العالية التي ستوصل آلامنا وآمالنا إلى من بيدهم الحلّ والربط.

ثم فجأة سألني وعيناه تتلألآن بدموع عالقة تجاهد كي لا تنهمر :

"هل النجاح هو إكسير السعادة الذي عنونت به روايتك؟!"

تأملت سعيد الطيب المحبّ..

أجمل ما فيه هذه العاطفة الجيّاشة ودمعته السخيّة السريعة وذلك لم يتعارض مطلقاً مع رجولته التي لم تكن يوماً استعراض فتوّة وعضلات.

وتلبّسني شعور أن هذه البذلة قد فصلّت له، فقررت بيني وبين نفسي ألا نعيدها لمن أجّرنا إياها، كتعبير عن فرحي بهذا اليوم

العظيم، فقد توفّر معي مبلغ زهيد من مصاريف حفل التخرج يكفي ليكون القسط الأول من ثمنها، خاصة وأنها مقترضة من ملبوسات أوروبية مستعملة أو ما يدعى "البالة".

أما هو فقد فاجأني حين عودتنا بأنه لم يغفل عن شراء هدية لي، سمّاعات لجوّالي الأثريّ كنت أخطط لشرائها بأقرب فرصة مادية تتاح لي.

وفي ذروة فرحي تأملت سعيد وروايتي عنه وأقسمت:

لست أنا من صنع منك بطلاً يا سعيد، لأنك بطل فطريّ لإنسانية تكاد تنقرض.

يا أخي الذي لم تلده أمّي.

(14)

ختمت روايتي بزواج سعيد من والدة الطفلة شمس وتسجيل زواجهما قبل تسعة أشهر من تاريخه ومن ثم تسجيل شمس لأمّ وأب كأيّ طفل يجيء إلى الدنيا معزّزاً مكرّماً.

وحين قرأ سعيد مستقبله فيها أشرقت أساريره فقد صار لديه معملاً لتكرير البلاستيك ثمّ توسّع عمله بإنشاء فروع في المحافظات وعاشت شمس في كنف أسرة تسودها المودّة والرحمة.

قرأت في عيني سعيد رضاه عن النهاية وحنين خفيّ للحبّ والأبوة والاكتفاء، وعجز عن تحصيل أيّ من الثلاث.

فبيتتُ النيّة إن فتح الله عليّ ونشرت الرواية أن أتقاسم وصديقي ريعها.

ثم دار الدولاب، وصارت روايتي بعد عامين بيد منتج اقترح علي أن أفصّل الأرومة الأصلية إلى حلقات لإنتاجها في عمل درامي وأن أدخل عليها لوازم الحوار والحبكة والدهشة.

وحين أتممت بعد أشهر مشروعي ونال رضا المنتج والمخرج، طلبت منهما أن يكون بطل العمل الشاب الذي أوحى إلي بالفكرة وراهنت على نجاحه بإخضاعه لبروفات واختبارات.

فقبلا بعد أخذ ورد، ولم يحملا الأمر على محمل الجدّ، لولا أنَّ أداء سعيد بدا كأنه حقيقة وأذهل الجميع بقدرته على تجسيد الدور وصدقه في التعبير وكأنه يؤدّي حياته بكل فصولها.

لاقى المسلسل نجاحاً جماهيرياً كبيراً شربنا نخبه معاً إكسير الصبر والأمل والحياة التي قد تبتسم حين يكون كل ما حولنا يبكي.

وأغلب الظنّ أن سعيد قد أحبّ البطلة، وستشرق شمسهما معاً كأطيب إكسير للسعادة.

المحتوى

زهرة الكادابول 5
اللصّ الظريف 39
الوسادة الغالية 61
ظلال أنثوية 81
هبوب الروح 114
إكسير السعادة 131

هبوب الروح/ ثناء درويش. – دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2020. – 161 ص؛ 20سم. –(سلسلة القصة).

1 – 831.01 د ر و هـ 2 – العنوان 3 - درويش
مكتبة الأسد